الكتاب الأول

١٩ يوليو – ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٦

بورسعيد – باريس

كانت معدات سفرنا لرحلة سنة ١٩٢٦ تامة يوم ١٨ من يوليو لا ينقصها إلا أن نعرف بالدقة الساعة التى تبرح فيها الباخرة « مونجوليا » ميناء بورسعيد . ومع ترددى على « كوك » لأقف منه على الموعد المضبوط فقد كان آخر ما اتصل بعلمنا أن آخر قطار يدرك الباخرة هو الذى يغادر القاهرة فى الساعة الحادية عشرة من صباح ١٩ من يوليو . وخيل إلينا أن هذا معناه أن الباخرة تتحرك بعد ساعة أو نحوها من وصول القطار إلى بورسعيد ، ففضلنا أن نسافر بقطار الصباح الباكر . وجاءت الساعة التى يصل فيها القطار الذى أشار « كوك » إليه ولم تكن الباخرة قد وصلت الميناء ولا كان أحد يعرف عن موعد وصولها بالدقة خبراً ، بل قيل لنا إنها قد لا تصل قبل صباح اليوم التالى . فأثار هذا التأخير فى نفسى حالة عصبية أن كنت أعتبر كل ساعة أكسبها أدنى إلى تحقيق الغرض الذى من أجله نسافر ، كما كنت أشعر بشىء من الطيرة ألا يكون كل شىء فى السفر كما أريده أن يكون .

وفى الساعة الثامنة مساء قيل إن الباخرة تصل بعد ساعتين ، وإن أنوارها ظهرت بالفعل على قناة السويس . وأقلتنا إليها الزوارق ؛ إذ ليس فى بورسعيد « أرصفة » ترسو عليها السفن . وسألنا الحمال عن متاعنا فإذا به مبعثر فوق ظهر السفينة ، فجمعناه على عجل من هنا ومن هناك ، وشكرت للذين ودعونا متمنين لنا سلامة السفر ، وأويت إلى مخدعى متعباً منهوكاً بعد أن قضيت النهار كله منذ الصباح الباكر وحين سفرنا من القاهرة أتقلب بين مشاعر وإحساسات ليست كلها مما تبتهج له النفس . فلما تنفس الصبح إذا الباخرة تجرى بنا فوق موج بسام تزجيه ريح رخاء ، وإذا سطح السفينة الفسيح تتلطف أشعة الشمس عليه بما ينعش النفس من نسيم البحر الجميل . وكانت حياة السفينة وعباب البحر المحيط بها هى الانتقال الأول من بيئة الذكرى المريرة ، لولا ما كان من سفر وحيدنا من قبل معنا على البحر بين موانئ مصر والشام ، ولولا ما تدعو آفاق البحر النفس إليه من الاستجمام والتفكير والتذكر .

على أن مافى حياة السفينة من جديد ، وما تعوَّد المسافرون على البحر خلقه من أنواع اللهو والمتعة ، يهوّن من غضاضة ساعات التفكرة والذكرى ، ويخلق أمامنا عالماً جديداً يستغرق

من تطلعنا بمقدار ما يستغرق السفر على البحر بين مصر وأوربا من أيام قلائل . والبواخر الإنكليزية أشد من غيرها إثارة للتطلع . فأنت فى سريرك ما تزال تغط فى نومك ولا تنتظر البتة من يزعجك عن فراشك ، فإذا باب القمرة يدق حتى تستيقظ ، وإذا القائم بخدمتها يحمل إليك فنجاناً من الشاى وثلاث بسكويتات أوأربعاً وتفاحة أو برتقالة أوواحدة غيرهما من الفاكهة ، ويضع ذلك على الرف إلى جانب مخدعك تكاد تتناوله من غير أن تجلس فى فراشك . فإذا اطمأن إلى أنك استيقظت أهدى إليك فى رقة وأدب تحية الصباح وسألك عن الساعة المضبوطة التى تريد أن تذهب فيها إلى حمامك ، وهل أنت بحاجة قبلها إلى شىء من الماء الفاتر لتزيين ذقنك . هذه الحركة كافية لتدلك على أن الساعة أصبحت السادسة ، وأن الوقت آن لتأخذ بأسباب اليقظة . على أنك فى حل من أن تظل آخذاً بهذه الأسباب إلى ما بعد الساعة التاسعة حين تصعد لتناول إفطارك بغرفة الطعام عصيدة وبيضاً ولحماً وشاياً وفاكهة وما شئت إلى جانب هذا كله من المطعومات . وبعد الساعة التاسعة تبدأ اليقظة على سطح البواخر عامة والإنكليزية خاصة . ولقد يود المسافر ، فى اليوم الأول ، بل فى الساعات الأولى من سفره ، أن يتعرف إلى البيت الجديد ، بل المدينة الجديدة ، التى يقيم فيها أيام هذا السفر ، فيلتمس صالون الباخرة وغرفة المطالعة وغرفة التدخين فيها وما قد يكون فى بعضها من صالونات وغرف عدة . فإذا استوى إليه علم ذلك كله عاد إلى سطح السفينة يمشى الهوينى يحاول أن يتعرف وجوه المسافرين معه . وهذه النظرة الأولى من المسافر إلى بيئته الجديدة تستغرق من وقته ساعات سفره الأولى ، وتبعث إلى نفسه ما لكل جديد من لذة ما لم يحل دوار البحر بينه وبينها . فإذا انتصفت الساعة الحادية عشرة صباحاً رأيت عربة صغيرة يدفعها أحد خدم الباخرة تتبعها عربة أخرى وعلى إحداهما فناجين الحساء « الشربة » وعلى الأخرى بسكويت غير محلى ليتناول كل مسافر من ذلك حظه . وفى الساعة الأولى من بعد الظهر ينزل الكل إلى غرفة الطعام لتناول غدائهم ، ثم تعقب ذلك فترة هدوء وسكينة ينتهزها بعضهم لينالوا غفوة الظهيرة على المقاعد الطويلة فوق سطح المركب لمن لم يشأ منهم أن ينزع ملابسه ، وفى القمرات لمن أراد الراحة التامة . ولعل مواطنينا المصريين أشد الناس حرصاً على هذه الراحة التامة . فإذا كان العصر تناول المسافرون الشاى وأمضوا ساعة أونحوها بعده ثم سمعوا ناقوس المساء يدق يدعوهم ليعدوا أنفسهم لطعام العشاء ولارتداء ملابس السهرة . فإذا كانت الساعة الثامنة أشرقت غرفة الطعام بالسيدات فى ملابس زينتهن وفى حليهن البديع البريق ، وبالرجال يلبسون الأسموكنج

ويتخللون السيدات فى جلستهم إلى المائدة لتبدو كل جميلة منهن بينهم كأنها زهرة عطرة بين أوراق يانعة هى بالزهرة بر وعطف وحنان . وينتقل الكل لتناول القهوة فى الصالون وينسحب المدخنون من الرجال إلى سطح المركب أوإلى غرفة التدخين ، ثم ينقسم الجمع طوائف تهفو آذان طائفة إلى سماع الموسيقى ، فتجد من سيدة بارعة ، أو من رجل متقن ، من يشنفها بحلو النغم . وتنتقل طائفة إلى حيث يلعب كل جماعة منها نوعاً من أنواع الورق على موائده الكثيرة فى البار وفى غرفة التدخين وفى غيرها من الأماكن التى يهوى اللاعبون إليها . فإذا انتصف الليل أو قارب أن ينتصف بدأ الناس ينسلون لواذاً إلى مضاجعهم يقضون فيها ليلهم منتظرين دقات القائم بخدمة القمرة على بابها متى أصبحت الساعة السادسة ، ثم دخوله بفنجان الشاى والبسكوت والفاكهة .

هذا نوع من الحياة جديد بالنسبة لسيدة مصرية لم تألفه من قبل ولم يحل حائل دون أخذها منه بنصيب أية سيدة أوربية من المسافرات معها . وهو جديد وإن كانت قد رأت فى مصر مظاهره ؛ لأنه اشتراك فى تمثيل رواية الحياة على صورة جديدة بـدل الأكتفاء بالجلوس أحياناً مع النظارة لمشاهدة ممثليها . وهو لذلك جدير بأن يحدث فى نفسها ثورة تبعث إليها حياة جديدة كلها نشاط وحركة وإقبال على الحياة ، بدل القعود والخمول وما ألف المصريات من التخلى عن الحياة . فليكن لهذه الثورة النفسية من الأثر المحسن ما رجونا من سفرنا فراراً من وسط ملىء بأشباح اليأس والألم .

لكن لا ! إن الهزة الأولى لا تكفى لتذيب ما تركز فى النفس من أكداس الهم ولتبعث إلى سواد الحزن أملاً فى ابتسام . لذلك كان من بين المسافرين معنا سيدة فرنسية وزوجها ، يحمل هو شارة الحداد وتلبس هى السواد ؛ فما كان أسرعنا إلى التقرب منهما والتعرف إليهما والسؤال عن سبب حزنهما وأساهما . وروت السيدة طرفاً من قصتها . لكنها كانت فى روايتها لا يخترم الهم كيانها ، وكانت تبدى من الاستسلام للقدر ومن مجالدة الأسى مثلاً صالحاً يجعل الأم الثاكل تفكر من جديد فيما طالما ذكرته لها من أن الحزن لا يعيد مفقوداً ، وأن مغالبة الألم والتغلب على اليأس خير ما يفتح مغالق الحياة وينير للأمل السبل إلى النفس ينشر فى أنحائها من ضيائه ما يعيد إليها فى الحياة كل رجاء . ولعل السيدة الفرنسية لم تكن وحدها التى مهدت للأمل والرجاء سبيلهما . فقد كان بين المسافرين جماعة لا يهون عليك أن تتصور كيف لا ينكمشون معتزلين الحياة وهم مع ذلك مقبلون أشد إقبال عليها مسلمون أنفسهم لألوان من المتاع فيها كأنما هم غارقون منها فى لجج النعيم .

فهؤلاء شيوخ وعجائز هدهم الكبر ، وهم مع ذلك يأخذون كل مساء أبهج زينتهم ، فإذا غادروا غرفة الطعام وجاء خدم الباخرة فخلقوا من أنفسهم موسيقيين يوقعون نغمات الجاز والفوكستروت والشارلستون هرعوا إلى حلقة الرقص كأكثر الشبان فيها نشاطاً ومرحاً . وهذه سيدة نصَفٌ آتية وحدها من أستراليا لم تنعم عليها الطبيعة بشيء من الجمال وإن أسبغت عليها فيضاً من الصحة والعافية تختنى فى طيه سنها تندفع إلى الرقص كلما عثرت بمن يرقص معها حياء من إلحاحها ، ناسية سمن بدنها وانتفاخ وجهها حتى يكاد يبض منه الدم ، مكتفية عن الجمال والشباب بالعافية المفتونة والماس الثمين تحلى به أصابعها وصدرها ورأسها . وهؤلاء شبان وفتيات من الإنكليز لا يدرى أحد ما قد يكون انتاب حياتهم من فواجع وهم يقضون نهارهم يلعبون نوعاً من التنس يطيقه سطح السفينة . أليس من هؤلاء العجائز والشيوخ والفتيات والشبان أحد غاله من أسباب الأسى ما غالنا ، ومن لو تفتحت كلوم قلبه لألهبت صدره زفرات تفرى المهجة وتذيب الحياة ؟ وقد يكون فيهم هذا الرجل أو هذه المرأة ، وقد يكون بينهم من هؤلاء أكثر من رجل أو امرأة . وأنى لنا أن نعرف والناس أسرار ! لكن هاته الحياة الغريبة يجتمع فيها الناس بعضهم ببعض ، رجالاً ونساء ومن بينهم من تعرف ومن لا تعرف ، تحمل الفرد على أن يتعالى كبراً عن أن يحنى لهم هامته أو يظهر منه إلا ما تهش له الجماعة وتستريح إليه ، كما يجعله يكبر فى مغالبة ضعف نفسه لتسمو إلى مكانة من تحية الجماعة وإكرامها . حياة هذا شأنها تقوى النفس وتشغلها بكثرة تكاليفها عما يضعضع منها ويضعفها . ولنا فى حياة المزارعين من أهل ريفنا مثل حى لصدق هذا الرأى . ولصلاح الحياة الحرة ، ولدفعها صاحبها للسمو فوق مواطن الانحلال مما تهوى بالقلب إليه الحياة الحبيسة التى كانت نساء الطبقتين الوسطى والموسرة تحياها ، والتى لا تزال حتى اليوم نصيب الكثرة الكبرى منهن . وكذلك يتجلى للناس أن الحرية قوام كل خير فى نواحى الحياة جميعاً ، ناحية العقل ، وناحية الحس ، وناحية العاطفة ، وناحية الشعور ، وأن الحرمان من الحرية وتقييدها مفسد للعقل والحس والعاطفة والشعور جميعاً ، قاتل لحياة الإنسان كما يقتل الظلام والسجن حياة الحيوان والطير والنبات وكل ما فى الوجود من صور الحياة .

وجازت الباخرة بنا «كريت» من غير أن نراها ، ثم كنا فى اليوم الثالث من سفرنا ننتظر أن تجتاز بنا بوغاز «مسينا» . وتناولنا شاى العصر واليابسة ما تزال تتبدى أمام النظر سراباً لا تستقيم حدوده . فاستعنت بمنظار مقرِّب لأحد المسافرين ، فأبصرت عن بعد نواتئ لعل

أحدها دير أو ما يشبهه . على أنها ما انفكت تقترب ثم تقترب حتى انكشفت أمام النظر رمال « مسينا » القاحلة ورمال الجنوب الإيطالى المجدب . وكلما ازددنا من هذه الشواطئ الممحلة من كل علامات الحياة دنوًّا نجمت أمام النظر بعض علامات الحياة من منازل ومراع للنعم ، أو لعلها أشجار أصارها البعد فى مثل نبات المراعى . والآن تبدأ تباشير مغيب الشمس ، ويبدأ البوغاز فى أضيق أجزائه ينكشف أمام العين لترى البحر من ورائه تنفسح لجته حتى تبتلع آفاق السماء وتبتلعها آفاق السماء . فى هذه اللحظة وقفت محركات السفينة فجأة ليحاذر بها ربانها ما يحيط بها من صخور . كذلك قالوا . أما أنا فخيل إلىَّ أن جلال هذه الساعة الساحرة وهذا المنظر العظيم فى جماله وجدبه قد بلغ من نفسه مكان البهر ، فاستمهل وتأنى ليزداد به ويزيد منه المسافرين متاعاً . ولم يكذبنى المنظار المقرب حينما أرانى وما نزال بعيدين ديراً . فهذا البناء السامق فى قمة الهضبة المطلة من « مسينا » على البوغاز صومعة أو دير أو طابية أقيمت لتحمى البوغاز وفناره . ولعله إلى الطابية أقرب ؛ فهذا الفنار على قرب منه بل بجانبه يهدى البواخر التى ما تفتأ تعبر البوغاز ، هو بحاجة إلى حماية كما يحتاج كل هاد إلى حماية . وعلى مقربة من الطابية ، ما خلا حرماً فسيحاً من الرمال ، تقوم منازل منثورة على سفوح الهضبة لا أدرى ما قوت أهلها وليس ما حولها من النبات إلا ما قدمت ، وما سوى هذه المنازل القليلة على سفوح « مسينا » وجنوب إيطاليا فحجارة ورمل لاتنبت إلا التجرد والمحل ؛ على أن لها فى تجردها وإمحالها جلالاً وروعة كجلال موج البحر وروعته . ثم إن الحظ الحسن هو الذى ساقنا لنراها فى ساعة المغيب حين تبدأ تكتسى ، بدل قطوبها ساعات تجعد الضوء الباهر ، وشياً رطباً تختلط فيه الحجارة بما يندى به أثير جو الغروب . وقد استوقف لين هذه الرمال والحجارة نظرى زمناً ولفتنى إلى ملاحظة لم تدر من قبل بخاطرى ، فهبوط الظلام يدخل على الأحياء الآهلة وحشة تزداد كلما أوغل الظلام إلى دجنته ، وتصل بك إلى الفزع منها بعد أن تكون ألوان الخشية فالخوف فالوجل قد تسربت إلى نفسك مع كل قطعة تهبط من كسف هذا الظلام . فأما هذه البقاع القاحلة فأخوف ما تكون ساعات الظهيرة وحين يبهر الضوء فيها الأبصار . فإذا تولت الشمس عنها بدأت تأنس إليها ، ثم كان لك من نجمها وإن غاب القمر سمير وأنيس . وسبب هذا فيما أخال أن الأحياء أشد ما يخشى الحى ، وأن الإنسان أخوف ما يخاف منه الإنسان . فظلمة الأحياء الآهلة لباس لكل ألوان الغدر والغيلة واللؤم والجريمة . أنت فى كل خطوة لك فيها معرض لغادر يسلبك مالك أو حياتك ، ولكمين ينصب حبائله لشرفك أو نفسك . والنور وحده هو الكفيل بهتك

الكثير مما تخاف من غدر الغادر ولؤم اللئيم . فأما هذه الرمال المترامية أمامك والتي تشعر بنفسك فيها بعيداً عن الناس والأحياء فلا تعرف الظلمة الحالكة فيها مكمناً للؤم والغدر ، ولا تخشى أنت فيها إلا الحيوان المفترس أنت ما حذرته أشد به فتكاً وأقوى عليه سلطاناً .

واجتازت الباخرة البوغاز وأطلقت لمحركاتها العنان وانطلقت محاذية شاطئ إيطاليا ، والجو يظلم رويداً رويداً ونحن فى شغل بذلك كله وبما تكشف عنه المقربات من أنوار تبدو على الشاطئ . وللمسافرين على البحر ولع أى ولع باستجلاء كل ما يستطيعون من مظاهر الحياة على الأرض ، وكأنهم ما تزال تتحرك فى نفوسهم غرائز الأقدمين من أجدادهم ممن كانوا يرون فى البحر عدواً لدوداً لهم . ويرون فى اقترابهم من اليابسة أنساً لنفوسهم وسلم نجاة من خطر قد ينزل بهم ؛ أو كأنما يدفع بهم إلى هذا الاستجلاء ما ركب فيهم من تطلع ، فهم يحاولون والسفينة فوق البحر تجرى بهم أن يستشفوا ما يجرى خلال الجدران على أبعاد نائية . ولم يصرف المسافرين عن الإمعان فى تطلعهم إلا رنين الأجراس تدعوهم كيما يتزينوا لطعام العشاء . وخيمت الظلمة على الوجود حين تناولنا القهوة فى صالون الباخرة ، وحين أعلن إلينا أنا بعد برهة سنمر ببركان « سترمبولى » الذى سكن منـذ أيام هياجه ، لكنه ما يزال يقذف فى وجه السماء شيظاناً من نار يرسل الفينة بعد الفينة منها شواظاً . وعدنا إلى مراصدنا تجاه الشاطئ الإيطالى ، وأمسك بعضهم مناظيرهم المقربة رغم حلكة الظلام . ثم نادى أحد هؤلاء : هذا شواظ رأيته . وحدّقت الأبصار وامتدت الأعناق وحاذت السفينة منطقة البركان فإذا به يقذف من فوهته المتدثرة فى حجاب الظلمة كل دقيقة أو دقائق قطعة مصهورة من حجر أو حديد تندفع فى الجو كأنها شهاب ثاقب ، أو كأنها النار التى يقص العجائز أن عيون الجن تتقد بها وتقدح منها شررها . وكلما دفعت فوهة البركان بواحدة من هذه القذائف ارتفع من بين المسافرين فى صوت واحد نداء : هاهى ذى ! ثم عادوا ينتظرون القذيفة التى تليها يتنفس عنها غليان هذا الجبل الهائج جوفه . ولما كثر ما رأينا منها هدأ نداء المسافرين شيئاً فشيئاً حتى سكن ، وجعلوا ينصرفون واحداً إثر واحد حتى باعدت الباخرة بينهم وبينها ، ودخلت من الظلام فى لجة كانت هى وحدها ضياءها .

وفى الغداة تناول الحديث وصولنا مارسيليا والساعة التى نبلغها فيها . وعلمنا أنا واصلون صباح الغد . وعلقت الباخرة الأخبار اللاسلكية التى تلقتها من المرفأ الفرنسى ، فوصلت بذلك بيننا وبين حياة جديدة بمقدار ما زجّت بما خلّفنا فى مصر فى طى النسيان . وقصت هذه الأخبار ما تجيش به فرنسا من قلق بسبب هبوط سعر النقد فيها . فقد هوى سعر الفرنك

حتى صار مائتين وأربعين للجنيه الإنجليزى ، فى حين لا يساوى الجنيه الذهب إلا خمسة وعشرين فرنكاً ذهباً . وأدى ذلك إلى استقالة الوزارة الاشتراكية التى كان يرأسها هريو وقيام وزارة بوانكاريه الائتلافية . وقد نشأت عن الهبوط ، على رواية اللاسلكى ، قلاقل فى باريس تنذر بقيام أهلها ضد الأجانب الذين يتلاعب نقدهم بأسعار نقدها ، والذين جعلوا من غلاء الحياة على أهلها ما أزعجهم وأعاد أمام أبصارهم أسباب الثورات وأشباحها . وأعلن بعض المسافرين أنه سيبرح مارسيليا ساعة وصولنا إياها تواً إلى سويسرا نجاة بنفسه من أن يزج بها فى بلد يغلى جوفه بأسباب الثورة ، كما كان يغلى جوف البركان الذى شهدنا من ساعات بقذائف الحمم . . . أما أنا فبقيت على عزمى أن نقصد تواً إلى باريس فهى خير مصح نبدأ به لزوجى ولى . وربما زاد من خيره أن يضطرب بأسباب القلق أهله بما يدعونا إلى مزيد من التفكير فيه وإلى مزيد مثله من نسيان أنفسنا . وقد شهدت من قبل فى أمم مختلفة وفى باريس نفسها ظاهرات قلق بل ثورة ، فألفيتها لا تمس إلا من ألقى بنفسه فى غمارها وأخذ منها بنصيب .

ورست الباخرة بكرة الغد فى مارسيليا ، فلم نتمكن من مشاهدة مدخل مينائها الجميل بهضابه وبالقصور المتوجة هذه الهضاب . وأتممنا التأشير على الجواز ، وجاء الحمالون فأنزلوا متاعنا إلى الشاطئ ومررنا به من الجمرك ، وأقلتنا سيارة اخترقت بنا أحياء مارسيليا ، فأرتنا من جديد حياة جديدة ، وأنزلتنا فندق « نواى » لنبدأ فيه حياة الفنادق ، فنبدأ حياة جديدة هى أيضاً .

* * *

صعدنا إلى غرفة الفندق التى اخترنا ، وصعد الحمالون إليها بمتاعنا ، وأجابت جرسنا خادمة تخطو من الصبا إلى الشباب ، صبوح الوجه باسمة السن ، ضاحكة النظرة ، متوردة الخد ، ناصعة اللون ، حلوة القسمات ، متقاربة القوام ، بضة من غير سمن ، كلها حياة وصحة وكلها هشاشة وبشاشة ، ويكاد كل جسمها ووجهها ونظراتها وثغرها يصيح من فرط الشباب حبوراً ومرحاً ، وما لبثت أن دخلت ففتحت النوافذ فأرتنا ميداناً تتوسطه الأشجار باسمة الخضرة الزاهية . وأجابتنا إلى ما طلبنا فى بشاشة وخرجت كذلك فى بشاشة وأجالت زوجى بصرها فى الغرفة مرة أخرى ، وأطلت مرة أخرى من النوافذ ، وجلست إلى المقعد الطويل تطوق ثغرها ابتسامة خالصة لم أشهد منذ ثمانية أشهر مثلها ناطقة بالغبطة والرضا ، كأنها تستقبل بها هذا النوع الجديد من الحياة ترى فيه أملاً جديداً فى شيء من السعادة

كان قد خيل إليها أنها فرت من بين يديها فرار الأبد ، ولم يبق لها فى شىء منها رجاء . وسعدت أنا بهذه الغبطة أن أيقنت فيها بداية البرء من سقمها النفسى الذى هد وجودها وضعضع صحتها . وبداية البرء بشير خير بتواتر تقدمه . لذلك أيقنت أنها واجدة فى باريس الدواء الناجع لهذا السقم .

وخرجنا نجوب شوارع المدينة المحيطة بالفندق وندخل بعض متاجرها . وأخذنا عربة عند مقترب الظهر طافت بنا البرادو والكورنيش والكانبيير ، ثم انتهت بنا إلى مطعم له شهرة فى صنع سمك البويابيس . وأذكرنى طواف العربة بنا فى هذه الشوارع والمتنزهات البديعة على الشاطئ الفرنسى الجميل الكلمة المعروفة التى يسخر أهل باريس من أهل مارسيليا حين يقولونها : « لو أن باريس كان بها كانبيير لكانت مارسيليا مصغرة » . ولئن يسخر أهل باريس من هذه الكلمة فللمرسيليين عنها من العذر أن متنزهاتهم هذه والبرادو فى مقدمتها ، لها من روعة الجمال ومن عناية بلدية المدينة بها ما ينقل إليك أثناء اجتيازك إياها من سحر ابتسام شجرها وزهرها ومن التقاء هذا الشجر فى بعض مواضعه بالكورنيش الذى يحاذى البحر وصخور شاطئه ما ينسيك كل شجن ويطير بك على أجنحة الخيال والنسيم كل مطار .

وعدنا بعد تناول الطعام إلى الفندق نسأل عن مواعيد القطارات المسافرة إلى باريس معتزمين اجتياز طريقها أثناء الليل . لكن صديقاً ذكرنى بجمال هذا الطريق ، وبأنه جدير بأن يراه الإنسان فى سفره . ولئن كانت أربعة عشر عاماً قد مضت منذ تركت فرنسا فإن ما لا يزال باقياً من أثر جمال أريافها فى نفسى جعلنى أفضل الأخذ برأى صديقى . وكذلك أتاح لنا الحظ أن نقضى أربعاً وعشرين ساعة كاملة بمارسيليا هى أطول مدة أقمتها بها خلال المرات الكثيرة التى جزتها فيها .

وقضينا عصر ذلك اليوم نرتاد المدينة آناً فى عربة وآخر على الأقدام . وأحسب أن السير على الأقدام خير وسيلة لمن يريد أن يعرف شيئاً عن بلد يحل لأول مرة فيه . وإنا لفى مسيرتنا إذ استوقفنا بناء جميل فخم كله الرهبة والجلال لا يشوبهما عبوس ولا ينقصهما حسن اتساق وصعّدنا النظر فى واجهة البناء فإذا مكتوب على بابه : « قصر العدالة » . هذا القصر إذاً هو محكمة مارسيليا الكبرى . هو مأوى القانون ورجاله والعدالة وطالبيها . هو معبد كهنة الحرية والنظام فى هذا العصر الديمقراطى الذى سما بحرية الفرد إلى مكان القداسة العليا ، فلا رقيب عليها ولا حسيب إلا أن يحاول الفرد الاعتداء على حرية غيره .

فإذا فعل ألقت عليه سلطة القانون يدها وجاءت به أمام هؤلاء الكهنة ، وهم أفراد من أمثاله لا امتياز لهم فيما وراء جدران هذا المعبد عليه ، فطبقوا عليه القانون الذى ارتضى ، لا القانون الذى يفرض عليه ولو على كره منه . هذا المعنى جدير بأن يقام له هذا القصر ، بل هذا المعبد الرهيب الجليل . فالعدل القائم على أساس الحرية الصحيحة هو أسمى المعانى الجديرة بالتقديس والإكبار . والناس ما استمتعوا بحريتهم ، وما قام العدل بينهم ليكفلها ويحميها ، جديرون بأن ينالوا كل ما يمكن أن يكون فى الحياة من سعادة ، وأن ينهضوا بالحياة وبالإنسانية إلى مرتبة الكمال التى ترجو الإنسانية بلوغها .

ومررنا بميدان فسيح لا تستوقف النظر عمارته ، لكن زوجى استوقفتنى منه عند منظر أثار دهشتها وعجبها لأخلاق « هؤلاء الفرنسيين » . ذلك شاب وفتاة يتحدثان فى الطريق . فلما آن لهما أن يفترقا قبلته وقبلها واتخذ كل سبيله . أو ليس مدهشاً حقًّا أن يتبادل شاب وفتاة القبلات فى الطريق العام ! بل فى ميدان فسيح وبأعين جمهور المارة من غير أن يحول الخجل دون ارتكابهما هذا الفعل علناً ! وذكرت لها أن هذا من متعارف أخلاق الأوربيين ؛ فهو لا يجرح حياء أحد ، وهو كذلك لأنه قبلة أخوية للقاء أو وداع يعبر اللذان يتبادلانها عن إحساس جميل وعاطفة نبيلة . والأعمال تقدر ، ويجب أن تقدر ، بالنيات التى تدفع إليها أكثر مما تقدر لذاتها . والحياة الحرة التى بلغتها أوربا بعد جهاد طويل وثورات مضنية وتضحيات غالية ، والتى أقامت بين الرجل والمرأة من المساواة والإخاء ما جعلهما يتبادلان العواطف والمنافع كما يتبادلها رجلان ، أو كما تتبادلها امرأتان ، قد قضت فى القلوب والأذهان على الاعتبار الجنسى الوضيع الذى يجعله أكثر المصريين وأهل الشرق فى المكان الأول من قدر صلات الجنسين الذكر والأنثى ، وارتفعت بالنفوس إلى اعتبارات إنسانية سامية دفعت الناس جميعاً رجالاً ونساء إلى أن يتنافسوا كى يبلغوا على الحياة كل ما يستطاع من كمال ، ومتى غلب نزوع النفس إلى السمو أهواء الجسم فى التدلى إلى شهواته ، اختلف معيار التقدير الخلقى واختلف تبعاً له نظرنا إلى أعمالنا وأعمال غيرنا وحسن قدرنا إياها ، أو إعراضنا عنها حياء منا أن تقع العين عليها . فقبلة شاب وفتاة فى الطريق العام وضيعة مخجلة إذا كانت دوافع الجنس وحدها هى التى تهيج نفسيهما بها . وقبلة شاب وفتاة بريئة طاهرة ما كانت مظهر حب طاهر وعاطفة شريفة ؛ وما دامت الحرية الحقة تفترض فى الناس الطهر والبراءة ، فليكن النظر العام للقبلات كلها على أنها قبلات إنسانية سامية ، كقبلة الأخ لأخته ، والأب لابنته ، والخطيب لمخطوبته ، ولتكن القبلة

الوضيعة موضع إعراض عنها وإغفال لها . وكفى بصاحبيها جزاء شعورهما بعدها بأن العمل الذى أتياه ونفوسهما ملوثة يكون أبدع مظهر للطهر والبراءة صادراً عن عاطفة أنزه وأنقى . وبعد ، فما هذه الصلات التى تلوث جمال القبلة وما قيمتها من نفوس مهذبة وأذهان مصقولة وعقول تدرك أن أكبر متاع فى الحياة طرب الذهن لتفكير دقيق ومنطق سليم ، وطرب الفؤاد لفن جميل وأدب رائع ! وأجمل ساعات المرأة حين تبدو قطعة من الفن ومن التفكير ، وحين تسمو كل الصلات بينها وبين الرجل لتكون فناً وتفكيراً هى أيضاً .

وقضينا طرفاً من الليـــل متنقلين فى أماكن مختلفة قريبة كلها من الفندق . وفى الصباح انطلق بنـا القطار ووجهته باريس يقطع من جنات الله رُباً وأوديةً وغابات وأنهراً محاذياً الرون السريع الاندفاع ، وتتجلى للنظر من نوافذه أرض فرنسا الجميلة كلها حديقة يسقيها المطر ، وتتدرج أغلب الأحايين مزارعها بين ارتفاع وانخفاض بما يلائم مسيل الماء عليها . وفى ديوان السكة الحديدية الذى كنا فيه رجال وسيدات غير ما ألفنا فى أسفارنا بمصر . وهؤلاء وأولئك يتحدثون جميعاً بعضهم إلى بعض بعد ما أحدث السفر بينهم التعارف . ومن بين السيدات جميلة تزهى بجمالها ، ولكنها لا تراه وحده حياتها ، ولا تحسب فرضاً على كل مافى الوجود أن يكون له عابداً . ونزلت هذه السيدة كما نزل غيرها ليون والمحطات السابقة لها ، وجعل رفقاء الديوان يتغيرون ؛ يتركه بعضهم ليجىء إليه غيرهم . فلما تخطينا ديجون ولم يبق بيننا وبين باريس غير محطة لا روش لم يكن بالديوان غيرنا إلا سيدة نصف أدنى إلى الكهولة صحبتنا من مارسيليا ، وهى لا ريب تقصد مثلنا باريس . ومنذ تحرك القطار فى الصباح جعلت تلتمس فى حقيبتها غطاء من الشبكة لشعرها ، وتعنى الحين بعد الحين بشىء من زينتها وتقضى ما بين ذلك ملقية نظرها على كتاب بيدها أو مجيلة إياه فى الفضاء . فلما انفردنا وإياها بعـــد ديجون اتصل بيننا وبينها حديث عرفت منه أننا مصريان نقصد إلى مدينة النور تسلياً بها عما أصابنا ، وأننى أعرف باريس أن قضيت ثلاث سنوات فى طلب العلم بها . وعلمنا نحن أنها كانت مدعوة فى الحفل الذى أقامته شركة المساجيرى ماريتيم لتدشين الباخرة ماريت باشا ، وأن الباخرة سافرت بهم ذهاباً وجيئة بين مارسيليا وبرشلونة بإسبانيا ، وأطلعتنا على صور صالون الماريت وغرفة الطعام بها وبعض غرف نومها . وسألتها هل دعيت بوصفها صحفية ، ليكون لى شرف مزاملتها ؛ فما كان أشد عجبى حين علمت أنها الكاتبة الفرنسية الكبيرة مارسل تنير صاحبة « هللى » و « بيت الخطيئة » و « ملاحة العيش » وغيرها من الروايات التى يشيد بها الأدب الفرنسى وتشيد به . وذكرت لها ما قرأت

منها وما أثار إعجابى من كتبها ، فاستحيت وعدلت بنا عن حديث الأدب ، وأخذت تحادث زوجى فيما لا يمل النساء الكلام فيه : الملابس ، وأعطتها عنوان خياطة زكتها بأنها متقنة غير عالية الأجر ، وحذرتها من المحلات الكبيرة التى تستغل الأجانب شر استغلال . وعجبت أنا لهذا حتى خالجنى الشك فى أمرها . فإن كانت حقا مارسل تنير فما بالها تعدل عن حديث الأدب الفرنسى حتى كأنها لا تعرف عنه شيئاً ؟ وما بالها وقد تجاوزت بعد الشباب مراحل تظهر كل ما أظهرت من عناية بزينتها ؟ ثم ما بالها تقف من حديثها عند الملابس شأن أية فتاة وأية سيدة لم تنل من التثقيف والتهذيب حظًّا يذكر ، بل لم تنل منهما أى حظ ؟ ولكنها إن لم تكن مارسل تنير فلماذا تسمت باسمها ؟ وإن تكن هى حقًّا ، وكان ما أثار عجبى أغلب شأنها ، فما أشدها شبهاً بشعراء وأدباء عرفت وأعرف لا تلمح على سماهم أى مظهر للنبوغ ، بل للموهبة ، وهم مع ذلك فى الشعر والأدب فحول مقدمون ، وكأنما يتنزل عليهم الوحى فى سر من الناس ، أو كأنهم إذا فرغوا من تصوير ما يلهمون شعراً أو نثراً خلت أفئدتهم فى انتظار وحى جديد . وهذا جان جاك روسو الكاتب الخالد يذكر عن نفسه فى اعترافاته أنه كان فى الجماعات أقرب إلى العى وأبعد ما يكون عن حضور البديهة وتوقد الذهن . وهذا أمير الشعر العربى فى عصرنا أحمد شوقى بك يصل منك الإعجاب بشعره إلى غاية المدى ، فإذا تذاكرت معه فى شىء عن الأدب العربى أو الأدب الفرنسى خيل إليك أنه لا يعرف شيئاً منهما . فلعل مارسل تنير ، إن تكن هى التى رأيتها ، من طراز روسو وشوقى . أم لعلها استكبرت عن أن تحدثنا فى أدب فرنسا وقد ذكرنا لها أننا مصريان ، وفى ذهنها مثل ما فى أذهان أكثر الأوربيين عن مصر صورة شوهاء بتراء لا تشرفهم ؛ لأنها تدل على جهالة ما كان يصح بقاؤهم متورطين فيها . وإذا كان لى أن أبتعد عن هذا التأويل بعد ما عرفتْ منى أنى قضيتُ بباريس ثلاث سنوات فى الدراسة العالية فإنى لا أظنه مستحيلا ، وقد رأيت من جهابذة العلم والأدب فى أمم مختلفة بأوربا من يبلغ بهم سوء التصور حتى ليحسبون أن ليس ثمة معرفة بالعلم والأدب فى غير أوربا ولغير الأوربيين . . !

على أنها رأت حينما قاربنا باريس ألا تترك فى خيال زوجى صورة وهمية من عاصمة فرنسا تجعلها ، حين تراها مدينة كالمدائن ، تشيح عنها بوجهها وترى رحيلها إليها وما قطعت من بحار وأقطار لهواً وعبثاً . فذكرت لها أن باريس شوارع وطرقات ومنازل وعمارات ، وأن بها أحياء فقيرة كغيرها من المدن وكالقاهرة نفسها ، وأن الكثيرين الذين يفدون لأول مرة إليها يظنون قبل نزولهم إياها أن مبانيها حجر من ذهب وحجر من فضة ، وأن هواءها

معطر بالورد ، وأنها بعض ما ورد فى ألف ليلة وليلة من مدائن الخيال ، فإذا رأوا أن لا شيء من ذلك فيها أعرضوا عنها واعتزموا الانصراف إلى غيرها . لكنهم ما يلبثون بها زمناً حتى يتبدى لهم أن جمال باريس روح باريس ، وأن الإنسان كلما ازداد بهذا الروح اتصالاً ازداد به تعلقاً وشغفاً . ووافقتها أنا على ذلك تمام الموافقة ، وأضفت أن ما يبدو للنظرة الأولى من باريس هو أقبح جمال باريس ، وأن طول المقام بها والمزيد من التعرف إليها والاختلاط بصميم حياتها ، ذلك هو الذى يكشف عن روعة جمالها وعظيم بهرها .

وبلغ بنا القطار مدينة النور قبل منتصف الليل بساعة ، فإذا أرصفة محطة ليون من محطاتها تكاد تكون خالية ، وإذا نورها ضئيل ، وإذا بنا نصيح بحمّال ينقل متاعنا خارج المحطة فلا يجيبنا أحد زمناً غير قليل ، ومتاعنا كثير غير سهل الحمل . فجعلت أدور هنا وهناك منادياً : شيال ، شيال ، حتى عثرنا منهم على من أوصلنا إلى « أوتموبيل » أقلنا ومتاعنا إلى فندق شاتام مجتازاً أكثر الشوارع خلاء وسكوناً فى هذه الساعة الساكنة بطبعها من ساعات الليل . وكان السفر قد هدنا تعباً ولغوباً ، فأوينا إلى غرفتنا منتظرين بكرة الصباح لكى نستقبل باريس وتستقبلنا باريس .

فى باريس

بعد أسبوعين من مقامنا بباريس دلفت ضحى يوم منفرداً أسير الهوينى فى طريق الأوبرا ، من ميدان الأوبرا إلى ميدان التياترو الفرنساوى ، أمتع النظر بما حوته حوانيت هذا الطريق ومخازنه من بديع الطرف وروائع آثار الفن . وانتهيت إلى قهوة الريجانس نحو الساعة الحادية عشرة . ولم أر أن أمكث على مائدة من موائدها الخارجية التى تشهد المارة فى الميدان يسيرون جميعاً مسرعين سواء منهم الرجال والنساء والشباب والشيب ، بل جزت إلى داخل المكان وجلست إلى مائدة فى أحد أركانه ، وطلبت « نصفاً » من البيرة ثمناً لجلوسى . وداخل الريجانس كداخل أكثر مقاهى باريس ضئيل الضياء حتى لينيرونه بالكهرباء فى الأيام الغائمة . وجعلت وأنا بمجلسى أجيل الطرف فيما حولى ، وأفكر فيما أضيع فيه الزمن الباقى على موعد الغداء . وكان إلى جوارى شخصان مكثا نحو ربع الساعة ثم انصرفا ، وصرت بعد ذهابهما وحيداً فى المكان كله . فطلبت إلى الخادم أدوات الكتابة وأخذت أسطر رسالة « للسياسة » عن باريس ورحلتى إليها . وما كان لى أن أفضى للناس فيها بما تتوجع له نفسى وأنا أشدهم مقتاً أن يرى أحدهم أى مظهر من مظاهر ضعفى . لكن الكاتب لا يصدر فيما يكتب إلا عن نفسه . وإذا تناول غير ما يدور بخاطره فإن ما يتناوله يصطبغ دائماً باللون الذى يرى هو به الحياة . لذلك كانت مقدمة رسالتى الأولى من باريس كما يأتى :

« أربعة عشر عاماً من الحياة (من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٢٦) تقضت بين مغادرتى باريس بعد تمام دراستى بها ، وعودتى إليها زائراً متنزهاً كـكل زائر متنزه . أما باريس فتغيرت إذ صارت أكثر حياة وحركة . وأما أنا فتغيرت إلى نقيض ما تغيرت باريس . وما بالك بأربعة عشر عاماً هى خير أشطر الحياة تساقط واحداً بعد الآخر فى غيب الماضى بين حرب وثورات واضطرابات لم ير العالم ولم تر مصر لها نظيراً ! ما بالك بربيع الحياة تُطوح به الحياة فى السعير واللهب ، وفى حمأة الجنون والهوس العالمى مما لا يزال يضطرب به جوف العالم ! لذلك كان مقامى بباريس تملؤه الحسرات . . . أين الفؤاد الذى كان يهتز لما فى باريس من روعة ولما فى ضواحى باريس من جمال ؟ ! أين النفس التى كانت لا تعبأ بالقذى التافه لأنها تستطيع أن تهضم الرواء العظيم الذى يشمل مدينة النور وتفيض مدينة النور به ! وأسفاه !

إن الممعود ليضطرب لمرأى أطايب الطعام ، والأعشى ليقذى بساطع الضياء ، وهما مع ذلك يدركان لذة الطعام السائغ وبهاء النور الوضاء : كذلك من تحدرت سنو شبابه فعدا الزمن على فؤاده وخرم الهم شغاف قلبه ، هو يرى بهاء الحياة وجمال الوجود ويقدرهما ويعجب بهما ، لكن حجاباً ما يفتأ يغشى خاطره الكليم يحول بينه وبينهما ، ويجعل منهما ، الحين بعد الحين عذاباً له وألماً ، أرأيت إلى هذا البدر المحجوب بغلالة بنفسجية فوق قوس النصر؟ لقد كان من أربع عشر سنة بدعة من بدائع باريس تتعلق بها الأنظار ساعات متواليات . ألم يكن البدر يومئذ عاشق السموات أنحله الحب وشفه الغرام والجنون ؟ ألم يكن يحبو فى غلالته مبطناً آملا فى لقيا محبوبه شفاء من ألم أرّقه وأضناه ! أما اليوم فتحت قوس النصر قبر الجندى المجهول . وفى قلوب كثيرة قبور لجنود غير مجهولة : قبور إخوان وخلان وآباء وأبناء . نعم وأبناء ! وهل لمن فى قلبه قبر ابنه بالبدر أو بباريس عزاء ! إنما عزاؤه فى الحياة ملكه الحياة وإخضاعه إياها راضية أو كارهة .

« ولكن . . . . . .هل أنا وحدى تحدرت بى سنو الشباب ، أم باريس هى أيضاً قد عانت ما عانيت وتألمت كما تألمت وحزنت بعض ما حزنت ؟ أما الفرنسيون فيجيبونك أن باريس اليوم ليست باريس إلا أن يكون الصالح الذى أثم والبرىء الذى أجرم ما يزالان هما إياهما ، لأن أعينهما ما تزال تلمع حرصاً على الحياة ، ولأن قواميهما لا يزالان معتدلين كما كانا . نعم لا يزال قوام باريس معتدلا ليس كمثله اعتدال ، وعيناها ما تزالان تلمعان حرصاً على الحياة . بل هى اليوم أكثر حياة وحركة . ما تزال باريس مدينة النور ومهبط وحى الفن . لكن نور باريس وفنها ليسا صفواً كما كانا . لم تبق باريس الغادة الهيفاء ، الضاحكة السن ، الناعمة البال ، المطمئنة للعيش ، الواهبة للحياة كل ما فى الحياة من جمال . بل ارتسم على جبين مدينة النور ، ولا يزال أملس وضاء ، جهام من وجل تقطب له ناظراها فوقفت مستبسلة كى تدفع غارة الأجنبي وعدوان الجاهل جمالها وهيبتها المعتز بماله كى يملك هذا الجمال وهذه الهيبة من غير أن يكون قلبه وعقله وجنانه على ملكهما قديراً » .

أقرأ اليوم هذه المقدمة لرسالتى الأولى ، فأسأل نفسى : أفكنت أكتبها بهذه النغمة المحزونة لو أننى ذهبت يومئذ إلى باريس زائراً متنزهاً ، ولم أذهب إليها مستشفياً طالباً الشفاء لشريكة حياتى وقد هدها المرض النفسانى أضعاف ما هدنى ؟ لقد بدأنا سياحتنا بعد ذلك بعام ، وبعد أن كانت النفس قد اطمأنت إلى ما أصابها ، بزيارة الآستانة . وعن الآستانة

كتبت ما سيتلوه القارئ من رسائل كلها الحرص على نسيان النفس فى روعة الوجود لتنسى النفس فيها ما يحزنها ذكره . أما فى باريس فكان الجرح لما يندمل ، وكانت اللوعة ما تزال تبرح بالنفس فى ساعات الوحدة من مثل تلك التى كتبت فيها رسالتى الأولى . على أن مقتى لظهور الناس على ضعفى جعلنى أخفيه فأجعله ضعف باريس وهمها بسبب تدهور سعر الفرنك يومئذ فيها ، فأقول :

« هذا هو الهم الذى يخترم نياط قلب باريس اليوم . وهو لكل فرنسى همٌّ مقيم مقعد . فما تكاد تجلس إلى أحدهم وتتحدث إليه فى أمر من الأمور حتى يكون عود الحديث وختامه عن الفرنك ولو كان بدؤه عن الأدب أو الفن أو السياسة أو أى ما شئت من شؤون لا ترى أنت لها بالفرنك علاقة أو صلة . وليس فى ذلك من عجب والفرنك وهبوط سعره هو اليوم مرض فرنسا العضال . ومن شأن كل مريض أن يربط كل ما فى العالم بمرضه . فالجو والشمس الساطعة أو الذابلة وضجة الناس واضطراب الحوادث وكل ما ينظر له الصحيح على أنه بعض مظاهر الحياة الدائمة التغير مع ثباتها الدائم ، ينظر له المريض فى علاقته بعلته ، ويكاد يخيل إليه أنه يتغير ليزيده علة ، أو ليدنيه من العافية . وهو لا يخفى أمر ذلك على جليس من جلسائه أو عائد من عواده ، بل يتحدث به ويفيض فى شرح صلته بأسباب علته ، ويلتمس فى كلمة من محدثه أو نظرة من نظراته بعض أسباب الشفاء » .

ولو أن الحق وعرفان الجميل هما وحدهما اللذان أمليا علىّ تلك الرسالة لاقتضيانى ألا أسلم قلمى لوحى العاطفة وحده ، وأن أذكر أن هذين الأسبوعين كان لهما من الأثر فى نفسينا أطيبه ، وأن كل يوم من أيامهما كان يوسع للفؤاد فى فرجة الأمل ويحطم جانباً مما أقامه الهم تمثالا لليأس فى قلب زوجى ويعيد إليها رويداً رويداً طعم الحياة كما لا تفتأ تذكر . فقد قمنا بكرة الغداة من وصولنا ، فدلفنا من الفندق فى شارع « دونو » إلى طريق « الكابوسين » ثم إلى ميدان الأوبرا ، ومقصدى أن أريها دار الأوبرا البديعة وميدانها قلب حى الحياة من قلب باريس ، وأن أسير وإياها فى طريق الأوبرا الذى سرت ميمماالريجانس فيه يوم كتبت رسالتى الأولى لترى معروضات حوانيته ومخازنه واثقاً بأنها واجدة فيها من صور الجمال والزينة ألواناً ليس لنا بها فى مصر عهد ، واجدة بذلك فى الحياة جديدا يسرّى عنها برمها بالحياة ويفرج من ضيق صدرها بها . وعجبت أن لم تحقق البرهة الأولى ظنى ؛ فإنها ما لبثت أن رأت مئات الأتموبيلات المتتابعة فى طريق الكابوسين ، ثم ما لبثت فى تخطينا من ميدان الأوبرا إلى طريقها أن اضطربت أمام حركة الأتموبيلات

الذاهبة والآيبة بين ميدان الأوبرا وميدان الفندوم ، وأن بدا عليها الضجر من هذه الضجة المفزعة ، ثم لعلها ، برغم حديث مارسل تنير حين كانت تقدم باريس إليها ، كانت تنتظر أن تحيط نظرتها الأولى إليها بغير ما أحاطت به . على أن هذا الضجر ما لبث أن زال أكثره حين جعلنا نقف أمام معروضات طريق الأوبرا فى كل حانوت من حوانيتها ومخزن من مخازنها . ولطريقة العرض وحدها أثر فى النفس كبير . والفرنسيون أكثر أهل الأمم فى طريقة العرض براعة . لذلك استرعى نظرها الشيء الكثير مما تحتوى معارض هذه الحوانيت . استرعت نظرها صور وتماثيل ، كما استرعت نظرها أقمشة وأزياء ، فجعلت تقارن بين أزياء باريس وأزياء مصر مما أعترف بأنى غير طويل الباع فيه ؛ ولذلك اقتصرت على الاستماع إليها والموافقة على ما تبدى من الملاحظات فى شأنه . وإنا لكذلك إذ غامت السماء وأرسلت رذاذاً جعلنى أفكر فى ضرورة المظلة ، أو المطرية كما يسميها الفرنسيون ، فى بلاد ما أكثر المطر فيها صيفاً ، وتابعنا طريقنا ، حتى إذا كنا على مقربة من ميدان التياترو الفرنساوى أفضيت إلى زوجى بأنه يجدر بنا أن نقضى مساء اليوم نشهد التمثيل فى « الكومدى فرانسيز » . فقالت :

– لكن الفصل صيف وفصل إجازات . أفلا تخشى أن يكون المتقنون من الممثلين قد غادروا باريس إلى مصايفهم وبقى من دونهم من الممثلين درجة ؟

فأجبتها :

– لا عليك يا صديقتى ؛ إن بيت موليير يعتبر فى نظر كل فرنسى عنواناً من عناوين مجد فرنسا ، فلن يسمح رجاله لهذا المجد أن يتضاءل ضياؤه فى الصيف أو فى الشتاء ، ولن ترى يوماً فى بيت موليير رواية لا ينال موضوعها إعجابك ولا يأخذك تمثيلها كل مأخذ .

وذهبنا وكانت رواية (الحب يرعى – L'amour veille) فلمـــا خرجنا كانت أشد منى إعجاباً ببيت موليير وتقديراً له كآية من آيات مجد فرنسا . ولم تقف بتقديرها عند التمثيل والممثلين . بل كان الجمهور وكان جو المكان وعمارته وكل ما فيه ذا نصيب فى هذا التقدير . فلم يكد أول فصول الرواية يرتفع الستار عنه حتى كانت المقاعد كلها قد جلس إليها النظارة ولم يبق منها مقعد خالياً . وبرغم هذا الحشد العظيم لم تكن تسمع أثناء التمثيل همساً أو جرساً إلا ما يفيض به الإعجاب ببراعة ممثل أو ممثلة فى موقف من المواقف من دوىٍّ المكان بالتصفيق . وزينة المسرح وملابس الممثلات بنوع خاص ، كان من بعض ما لفت نظرها . على أن هذه اللغة الفرنسية الرقيقة القوية ، وهؤلاء الممثلين والممثلات الذين يصورون بها أشد العواطف عصفاً بالنفس وأدق الأفكار اتصالا بالذهن ،

ذلك هو ما أدى بالجمهور إلى إقباله وحسن استماعه وعظيم إعجابه ، وهو ما أدى بنا إلى أن نكثر التردد من بعد على مسرح فرنسا القومى . وانتهى الفصل الأول من الرواية فتركنا أماكننا إلى بهو الممثلين مجتازين إليه من طريق الشرفة المطلة على ميدانه . والشرفة طويلة نحو ثلاثين متراً . لكن طولها وحده ليس لافتاً للنظر ، وإنما يلفته هاته التماثيل الكثيرة القائمة فوق عمدها على مقربة من جدار الشرفة على أبعاد متساوية . وهى تماثيل نصفية للمؤلفين المسرحيين ، يبعث رأس كل مؤلف منهم إلى نفسك صورة ما ألف ، وصلته بهذه الصورة العصبية أو الدموية الخيالية أو الواقعية الشعرية أو المفكرة . وانتقلنا إلى البهو فإذا به أربعة تماثيل : أحدها تمثال كامل لفولتير بالحجم الطبيعى ، وإذا النظارة يخطرون ، يختال الشباب ، وتبسم الرجولة ، ويهن المشيب . والشرفة والتماثيل والبهو والنظارة كلها تحدثك عن المسرح وفنه وتملأ نفسك إقبالا عليه وقدراً إياه . ودق الجرس للفصل الثانى ، فلما انتهى هبطنا نقضى الفترة التى بينه وبين الفصل الأخير فى الطابق الأول وصالته المتصلة بميدان اللوفر ، وفى الصالة وفى بهو الدخول تحدثت إلينا تماثيل موليير وراسين وكورنى ، كما حدثتنا تماثيل كبار الممثلين والممثلات وفى مقدمتهم مونيه سولى . فلما صعدنا للفصل الأخير لفتت نظرنا لوحة على جدار السلم كتبت عليها أسماء من استشهدوا من رجال هذا المسرح فى ميدان الشرف أثناء الحرب الكبرى دفاعاً عن وطنهم فرنسا ، فأعادت بعض هذه الأسماء إلى الذاكرة صوراً محبوبة فى براعة تمثيلها . وكذلك لم تكن الرواية التى نشهد هى وحدها مأخذ النفس ، بل كانت البيئة كلها تنقلك إلى عالم الفن التمثيلى وتجعلك أدق شعوراً – ببدائع ما يجليه الممثلون والممثلات على المسرح أمامك .

ورأيت فى إعجاب زوجى بالمسرح دليلا حسناً على توفيق فى اختيار باريس لتبدأ فيها استشفاءها ، وعدت بها إلى الكوميدى فرنسيز بعد ذلك مرات . ولم تكن أمسية تمر من غير أن نذهب إلى أحد المسارح إلا نادراً . على أن إعجابها بالكوميدى كان لا يفتأ فى ازدياد . وإن أنس لا أنس يوماً كانت فيه إلى يمينى وصديق من أساتذة كلية الحقوق الملكية إلى يسارى . وكنا نشهد تمثيلية رواية « ابنة رولان » ، ونسمع فيها ألبير لمبير ومدموازيل بييرا وزملاءهما من أكابر الممثلين والممثلات . و« ابنة رولان » رواية قديمة تقص تاريخ حادثة بين الأندلسيين وشارلمان ملك فرنسا . وفيها يتحدث شارلمان عن المسلمين بأنهم كفار ، ويستنزل عليهم لعنة الله تطوح بهم فى أعماق سقر . وكان ألبير لمبير يمثل شارلمان . فما كان أشد عجبى ، وأنا أسمعه يرفع عقيرته بأشد عبارات التعصب ويدعو قومه إلى قتال هؤلاء

المسلمين الكفار ، أن أسمع عن يميني وعن يساري تصفيقاً حاداً من مسلمة ومن مسلم تصحبه عبارات الإعجاب بهذا الملك المجيد . والحق أن سمو فنّ الكاتب ، وعظمة الممثل وبراعته قد أنست السامعين كل ما سوى الفن والإعجاب به ، ذلك بأنه أخذ بالمشاعر جميعاً فأنساها الحياة الوضيعة وسما بها إلى حيث لا تقدر شيئاً غيره كائنة ما كانت المعاني التي يعبر عنها والصور التي يجلوها والعواطف التي يجيشها . وهل تريد للفن عظمة أكثر من أن يستر ما يملأ نفسك من العواطف العميقة ليقيم مكانها ما يناقضها كل المناقضة .

ولست بناس لبيت موليير كذلك يوم شهدنا فيه رواية (الحب – Aimer) تمثل ، هذه الرواية الخالدة من روايات بول جرالدى يقص فى جانب منها فجيعتنا . فهذان زوجان فقدا وحيدهما وأقفر العالم حولهما ، وهوى الحزن بالأم فتعلقت بأسباب الحياة تلتمس عزاء ورجاء . وكان لهما صديق كثير التردد على البيت كثير التودد للزوجة ، ما برح يزجى لها أسباب الإغراء حتى تعلقت به وأحبته وأعلنت ذلك إلى زوجها ، وطمعت إليه فى أن يرد لها حريتها لتلحق بصاحبها من غير أن يلحقها عار أو ضيم . وعبثاً حاول زوجها ردها إلى حمى الزوجية والواجب . ثم هدته الفكرة إلى أن ينزل عن الجهاد وأن يدع المحاولات . وأن يظهر كأنه لا يعنيه فراق زوجه . وأبلغها أنه أجابها إلى حريتها ، فهى طليقة تفعل ما تشاء على ألا يبقى عنده منها فى البيت أثر . وجمعت الزوج متاعها وكل ما كان فى الدار لها ، وأرادت أن تستأذن فى الانصراف ، فذكر لها زوجها أنها نسيت شيئاً لا يصح أن يبقى بعدها ، وأعطاها صورة وحيدهما الذى غادرهما وغاله الموت منهما ، وطلب إليها أن تحتفظ هى بها ! وحدقت الأم إلى الصورة ثم ردت طرفها إلى زوجها تسأله : أحقاً أن ذهابها ينزع حتى هذه الذكرى المقدسة من نفسه ؟ ! وكان جواب الرجل الجريح فى عزته ، الجريح فى أبوته ، أنها هى التى تريد فى سبيل هواها أن تمحو من كل نفس ذكرى فتاها . وكانت هذه الذكرى هى التى ردت إلى الأم أمومتها وإلى الزوجة زوجيتها ، وهى التى ربطت بين هذين القلبين برباط مقدس لا يستطيعان ، وإن حاولا ، منه فكاكاً .

لست بناس ذلك اليوم . ولست بناس عبرات خنقتنى ولا سبيل إلى حبسها وإن حبست صوتى أن يجهش بالبكاء إشفاقاً على جارتى التى ترى على المسرح مأساة فجيعة الأم فى وحيدها من جديد تمثل ، فتحاول ما أحاول عبثاً من حبس صوتها خجلا من الجمهور وضناً بالفن أن يفوته . وخيل إلىّ زمناً أن الخير أن نغادر المكان . وأشرت بين

فصلين بذلك إليها ، فإذا هى أشد حرصاً على شهود هذه الرواية وأشد حباً للمسرح من أجلها . وكذلك كانت الكوميدى فرانسيز ، حتى فى إسالتها العبرات الصادقة من مآقينا ، تمد يد الفن المحسنة فتجعل من كل عبرة بلسم شفاء لأشد جرح نفوراً . وكذلك كانت وستبقى بحق آية من آيات مجد فرنسا ، وكنت أنا على حق حين اتخذت منها لصاحبتى أبرع وسيلة فى باريس للسلوة .

وكما أنك تتخطى طريق الأوبرا ما بين معبد الموسيقى (الأوبرا) ومعبد التمثيل (الكوميدى فرانسيز) ؛ فإنك إذ تسير فى اتجاه الطريق نفسه ما تلبث بعد خطوات أن ترى أمامك المعبد الأكبر للنقش والتصوير ؛ إذ تقابلك البوابات الضخمة المؤدية إلى الفناء الفسيح ، فناء متحف اللوفر ، وإلى حدائق التويلرى البديعة الجمال بقوس نصر الكاروسل وبالتماثيل الكثيرة الجميلة المنثورة فيها ، وبأشجارها المكتملة النماء ، وبفسقيات الماء يدور من حولها الأطفال يلعبون . وكنت قد رأيت منذ نزلنا باريس أنه لا يجمل بنا أن نزور متحف اللوفر فى أيامنا الأولى ، وألا نزوره قبل زيارة غيره من المتاحف . بل رأيت ألا نعجل بزيارة المتاحف ؛ ففيها دائماً هيبة ورهبة ، ونحن فى حاجة إلى رواء وبهجة . لذلك اخترقنا التويلرى أول زيارة لنا إياها ميممين ميدان الكونكورد ، وتقوم وسط جوه الأوربى الكثير التقلب مسلة الأقصر الفرعونية التى لم تعرف قبل انتقالها إليه ما تقلب الجو وما عبثه ، وإن عرفت مدى ألوف السنين التى شهدت كيف تطل على معبد آمون وعلى معبد الأقصر وعلى آيات من مجد الفن الخالد الباقى . ووقفنا على إفريز حديقة المسلة نسرح البصر فى الميدان الفسيح تقوم فى جوانبه التماثيل الكبرى ، ومن بينها تمثال مدينة ستراسبور كان إلى ما قبل الحرب الكبرى متشحاً جانبه بالسواد ، وها هو ذا اليوم كغيره من التماثيل قد زال عنه السواد منذ استردت فرنسا الألزاس واللورين واستردت ستراسبور معها . وتقوم مع التماثيل نافورتا المياه البديعتان ترسلان بالمياه صوب السماء من أفواه السباع المتقابلة . وولينا وجهنا نحو الشانزليزية مقابل حديقة التويلرى ، فلم يبلغ البصر مدى هذا الطريق العظيم عند قوس النصر الأعظم . وعن يميننا امتد شارع رويال منتهياً بكنيسة المادلين المهوبة العمارة فى غير جفوة ولا قسوة . وعن يسارنا تخطى البصر نحو السين ليقع على قصر بوربون دار مجلس النواب الفرنسى . ما هذا كله ؟ ! أين هذا فى مصر وأين هذا فى أوربا بل فى العالم كله ؟ ! ما هذا الجمال والجلال ؟ ! وما هذه العظمة الباسمة اختيالا وتيهاً ! إن هذه المجموعة التى نشهد لمجموعة فذة فى عالم العمارة وفنها ، وهى بحاجة لكى

تنال النفس ريها من بهائها إلى عشرات بل مئات من الزيارات لا تزداد النفس بعدها إلا تعلقاً بها وشغفاً باستجلاء بديع الدقائق فى صنعها . مع ذلك فهذا الميدان الفسيح المحيط بكل هذا الجمال قلَّ من يقف فيه اجتلاءً لجماله إلا الذين قدموا باريس وزاروه للمرات الأولى . فهو على أنه متحف تماثيل وعمارة هو متحف فى الهواء الطلق ، وهو متحف فى وسط هذه الحركة العنيفة ما تكاد فى ساعة من النهار تهدأ . ولذلك يمر الناس به سراعاً تطير السيارات بمن تقله منهم ، ويسرع المشاة إلى تخطيه لئلا تحطمهم السيارات ومن فيها . على أنى بينما أشارك زوجى فى الإعجاب بروعة الميدان وما فيه أسرعتْ بذاكرتى لفتة إلى الماضى حين كان الكونكورد بعض الميادين التى خطا بباريس فيها شبابى ، وحين كانت المادلين أول عمارة باريسية فخمة وقع عليها بصرى . وما عسى أن تفيد الذكرى أو ينفع رجع الشباب فى مثل موقفى ! فدلفنا متقين العجلات إلى الشانزليزيه متخطين إياه إلى الطرق المحاذية لا يفصلها عنه فاصل ، وتزينها الأشجار تكاد تحسبها غابة لا يصل نظرك إلى آخرها . وألقينا عصا التسيار غير بعيد أن طال بنا السير فاستوقفنا عربة أنزلتنا حيث نتناول طعام الغداء .

وعدنا بعد ذلك مرات بل عشرات المرات إلى التويلرى فالشانزليزيه ، وعدنا إليهما فى ساعات مختلفة من الليل ومن النهار . أترانى أستطيع وصف ما تقع عليه العين منهما وما تنقله للنفس من إحساسات ومشاعر ؟ ! من العبث أن أحاول وصف مجموعات العمارة مما تقع عليه العين فى الشانزليزيه عند تقابل القصرين الكبير والصغير، يمر الشارع الذى يفصلهما لينتهى إلى جسر الإسكندر أبهى جسور السين وأروعها بنسوره المحلقة يلمع فى الهواء لونها المذهب ، ويسير الطريق من بعد الجسر حتى ينتهى إلى الانفاليد مثوى نابوليون ومستقر رفاته « بين أمة الفرنسيس التى أحب حباً جماً » كما كتب على باب قبره . ومن العبث أن أصف قوس النصر الأعظم غاية الشانزليزيه وملتقى شوارع باريس الاثنى عشر الكبرى ، ومن بينها طريق غاب بولونيا الذى ينتهى بك إلى مسرح ما فى باريس من حياة وفن وعاطفة وشعر ورغبة . من العبث أن أصف لك هذا وكل من القصرين والجسر والقبر وقوس النصر ، يحتاج كل واحد منها إلى دراسة فى الفن ودراسة فى التاريخ لوصفه ، ويحتاج إلى أن تقف لذلك عنده الساعات تباعاً . ونحن أشد حاجة إلى السلوى منا إلى الدراسة وأشدّ حاجة للمتاع بما تنقله إلى النفس هذه المجموعة الفذة فى مجموعها من إعجاب بها وبما تشتمل عليه من حركة دائمة النشاط ، حتى لخيل لزوجى أول مرة رأتها أنها فى يوم

عيد أو على حد تعبير سيدة مصرية جليلة ، أنها فى مولد النبى . والحق أن هذا النشاط الدائم الحركة فى هذا الحى البديع من أحياء باريس يشعرك أنك فى مثل يوم الحشر . أنت كل لحظة فى وجل من العجلات ، فإذا أنت ركبتها رأيتها مضطرة لأن تقف هنيهة بعد هنيهة خضوعاً لنظام حركة المرور ، ولأن تدفع من البنزين ومن الجاز ما يضيق له فى كثير من الأحايين صدرك ويزكم له أنفك . ثم إنك بالكونكورد والشانزليزيه ما مررت بهما صدر الليل أكثر متاعاً . فى هاته الساعات حين يبدأ شيء من السكون ينسل إلى شوارع باريس وميادينها ، يمسى الكونكورد والشانزليزيه بحراً لجياً من ضياء المساء يكسو المار بهما من غير أن يغرقه ، ويبتعث خيالاته إلى كل ما ينطوى عليه الليل من نعيم ومسرة ، ويدعوه ليستمتع بنور الليل الذى لا تعرفه مدينة ما تعرفه مدينة النور . فإذا دلفت إلى الطرق المحاذية للشانزليزيه وجدت كل آن وحين ملك الحب يتمشى تحت أشجارها ، أو يستريح إلى مقعد من مقاعدها مصوراً فى شاب وفتاة أكثر أمرهما متخاصرين وهما يتناجيان بوحيه ويتابعان سعيدين مسرى أهوائه . وتتبدى لك هنا وهناك خلال أشجار هذه الطرق أنوار وضاءة تهدى إلى ملهى فيه طعام وشراب ورقص وموسيقى ، وفيه للمترفين من أهل اليسار ما يخفف عنهم عبء أموالهم ، وما يحدثهم غير حديث هؤلاء الذين يكتفون بالسماء والشجر ستاراً لحبهم لأنهم لا يجدون لغير السماء والشجر الوسيلة . فإذا أغذذت فى الشانزليزيه سيرك مصعداً نحو قوس النصر حتى تمر بالقصرين الكبير والصغير تقاربت فى الطريق الفخم الأنوار والفنادق والقصور فلم يبق للحب المطمئن فى هذه الناحية ستار ، وإن بقيت له بعد قوس النصر فى طريق غاب بولونيا وفى كثير غيره من الطرق أستار . وفى هذه الناحية المهتوكة الضياء يقوم مسرح الفمنا ، وملهى الليدو ؛ وغيرهما من متع باريس ماجنّ الليل أهل باريس . وقد استحدث فى هذه الناحية من المقاهى والمطاعم والبارات ما جعلها وهى التى كانت من قبل حى السادة والأستقراطية من أهل باريس ، تشبه « الجران بولفار » مسرح الديمقراطية التى سادت بعد الحرب فطغت على الأحياء جميعاً ، وإن بقّى حى الشانزليزيه فى ديمقراطيته مكان أرستقراطية المال الذى جد بعد الحرب لمن كانوا من قبل لا يملكونه . وهذه المطاعم والمقاهى هى أنس الشرقيين الذين يقصدون باريس ، لما تتيح لهم من حياة كلها الشبه بحياة الشرق فى اطمئنانها وكسلها . فإذا أنت جاوزت المطاعم والمقاهى وبلغت قوس النصر وأدرت بصرك فيما حولك ، رأيت بساط الليل ممدوداً فوق ما سوى الشانزليزيه من كبريات الطرق ليست فيها أنوار الشانزليزيه وليست فيها حياته .

وقفت يوماً إلى جانب قوس النصر أحدق إلى النار الخالدة يتبدى ما فوق قبر الجندى المجهول لهيبها . لم يكن هذا القبر ولا كانت هذه النار هنا من سبع سنوات ماضية ، ومع ذلك صارا فى عداد الخلد الذى صار قوس النصر قبلهما إليه . وهما بالخلد جديران ؛ لأنهما يمثلان فكرة خالدة هى فكرة التضحية فى سبيل الوطن . التضحية الصامتة المجهولة التى لم تفكر يوماً فى أية فائدة مادية أو معنوية ، ولا فكرت فى مجد أو جاه أو بقاء على الزمن . التضحية يرتضيها صاحبها باسماً سعيداً لأنها واجبه يؤديه غير منتظر جزاء ولا شكوراً ، لا لأنها وسيلة يمن بها على مواطنيه ليقتضيهم ثمنها مضاعفاً . التضحية الصادقة الخالصة إخلاص الأم لابنها ، والمؤمن لله ، والإنسان للوطن . التضحية فى أسمى صور التضحية وأجل معانيها . هذا المعنى الخالد جدير بأن يكون مثاله فى كل نفس خالداً . وأنت لذلك تشعر أنه كان فى هذا المكان منذ الأزل ، وأن فراغ هذا المكان منه قبل أن يقام فيه إنما كان تفريطاً ممن أقاموا قوس النصر وهم يعلمون علم اليقين أن لا نصر فى الحياة من غير تضحية .

ومتى أقيم قوس النصر ؟ ومتى شق الشانزليزيه ؟ ومتى أقيم القصران الكبير والصغير ؟ ومتى مهد ميدان الكونكورد ؟ ومتى نسقت حدائق التويلرى ؟ وكم من الأجيال أقامت قصر اللوفر ؟ نعم ! كم اقتضت هذه المجموعة نرتع خلالها ونستمتع بجمالها من زمان وجهد وعبقرية ؟ قلّ أن يعرض لنا هذا السؤال ونحن نتخطاها على حين يقضى بعضهم سنوات من حياته بل حياته كلها بتقصى أخبار هذا التاريخ العظيم الذى تنطوى عليه هذه البقعة من باريس ليست أقدمها وإن كانت أروعها ، وليست أبقاها أثراً فى النفس وإن كانت أشدها أخذاً بالنظر وبهراً للب . وأنت فى غير حاجة إلى كل هذه الدراسة التى يقضى فيها من شاء السنوات ليقص أخبارها ، بل أنت فى غير حاجة للرجوع إلى قصص هذه الأخبار لتقدر ما ذاب من فلذات الإنسانية أذهاناً وأرواحاً وخيالات وعواطف وأذرعاً ، ليذر لنا وللأجيال من بعدنا أن نشارك هؤلاء الذين سبقونا على الحياة فى ارتشاف أكبر نصيب من حياة الكون والوجود كله . إن ما يقع عليه نظرك كفيل وحده بأن يريك من هذه الأجيال ونبوغها وسمو فنها وقوة عاطفتها ومتانة أذرعها وبنائها ما يشعرك أنك صغير بينها بانقطاعك عنها ، كبير معها باشتراكك وإياها فى ذوق الفن والسعى لمزيد منه تستمتع الإنسانية به . حقاً ! إن الوطن ليس هو هذه الأرض التى نحفظ منذ صغرنا حدودها ونعتبر شركاءنا عليها إخواناً وأعواناً ، بل إن للآباء والأجداد وللمقابر وللرفات ، لحظًّا من الوطن أعظم من حظ أرضه . وهذا الحظ هو الذى يجعل بقعة من الأرض وطناً ، ويجعل الوطنية روحاً ، ويجعل

لنا بهذا الروح إيماناً نفتديه بمهجنا وأنفسنا وأرواحنا ونتخذ له من أرض الوطن معبداً ومقاماً . فمن أولاء الذين أقاموا قوس النصر ، وفيم أقيم ؟ ومن أولاء الذين مهدوا ميدان الكونكورد ورفعوا تماثيله ، وفيم مهد الميدان ورفعت التماثيل ؟ وقصر اللوفر . . كم من ملوك تعاقبوا عليه ، ومن مهندسين صوروه ، ومن رجال فن نقشوه ؟ والقصران والجسر وقبر نابليون وكل عمارة وكل أثر ! ! ليس هذا ثرى الوطن ، ولكنه حياة ألوف الأجيال من أبناء هذا الوطن . ولذلك يدافع عنه أبناؤهم بإيمان وحرارة ؛ لأنهم يدافعون عن آبائهم وعن تراثهم وعن أنفسهم وأرواحهم ! يدافعون عن الدم الذى يجرى فى عروقهم كما يدافعون عن الأرض التى يقوم عليها هذا التراث المقدس عندهم وعند كل الأجيال التى تخلفهم ، والتى تطوى الرفات الغالية التى أقامت هذا التراث فأقامت منه للوطن هياكله ومعابده ، وجعلت الوطن لذلك أكثر فى النفوس قداسة ، كما جعلت النفوس أكثر بالوطن إيماناً .

هجست هذه الخواطر بنفسى ، فأردت أن أفضى بها إلى زوجى لعلها تشاركنى فيها أو تدلى إلىّ بخاطر جديد . لكنى سرعان ما ترددت ثم أحجمت مخافة أن يثير ذكر الماضى شجنها بعد أن بدأ الأمل يفتح لها أحضانه ، ويعدها فى المستقبل متاعا بجمال العالم كله يعوضها عن عالمها الذى ذهب . لقد سألت نفسى بعد أن اعتصمت بإحجامى بم كنت أجيبها لو أنها صاحت بى :

– لا كان وطن ثراه رفات الأطفال وفلذات الأكباد !

على أن ذكر هذا المجد فى جانب من جوانب باريس هفا بذاكرتى إلى جانب آخر أشد اتصالا بها ، ذلك هو الشاطئ الأيسر والحى اللاتينى منه . هذا الحى الذى قضيت فيه خير ما قضيت بمدينة النور من شبابى . ولئن كان الشاطئ الأيمن حيث مسارح الأوبرا والأوبرا كوميك والكوميدى فرانسيز وحيث الكونكورد وقوس النصر ومتحف اللوفر والجران بولفار وما يتصل به ، قد أمتعنى أيام ذلك الشباب بما نعمت به سواء أكنت مقيما ببعض أحيائه أم كنت مرتاداً إياه لأعود إلى حى الجامعة والكليات ، فإن هذا الحى العلمى الملىء بالشباب والنشاط وبالحياة الساخرة من الحياة وبالمتاحف والحدائق ، هو الذى كوّن شبابى ووجه معارفى ونظّم إلى حد كبير خطة حياتى . وزادنى شغفاً بزيارته شوق للأماكن التى سرت فيها ، والمنازل التى أويت إليها ، والمعاهد التى درست بها ، والمكاتب التى ترددت عليها . وحديقة اللكسمبور طالما فتنت بجمال ربيعها ، وإلى هواء هذا الحى التى تنسمت ، ووجوه شبابه الذين بينهم نشأت ، وإلى فنه فى متحف اللكسمبور وفى البانثيون وإلى الأوديون

كم صفقت لممثليه وكم درت حول جدرانه وتحت أقبائه ، أتعهد فيها عند فلاماريون الكتب الحديثة التى ظهرت ، وأبحث لديه عن الكتب القديمة التى اندثرت ، وأضيف من ذلك كله يوماً بعد يوم جديداً إلى حياتى وإلى عاطفتى وإلى روحى وإلى ذهنى . وما كانت زوجى لتخالف عن مشيئتى وأنا دليلها وقد أقمت لديها على حسن تصرفى الدليل . ومن اليسير عليك أن تصل إلى حى العلم بأن تتخطى السين على جسر الكونكورد أو جسر سولفرينو أو جسر اللوفر أو أى من هذه الجسور التى تقابل التويلرى ومتحف اللوفر ، وتكون بعد هنيهة فى طريق سان جرمان تنحدر منه خلال أى من شوارعه الكثيرة إلى حيث تقصد عند الأوديون أو اللكسمبور أو البانثيون أو شارع المدارس أو بلفارسان ميشيل . وإلى هذه الأماكن مواضع ذكرى الشباب وطلب العلم ذهبنا ذات صباح وفى نفسى للقياها بعد انقطاع أربعة عشر عاماً عنها هيبة ولهفة . وللوقوف بكل مكان تركت فيه بعض حياتى وترك لى على الحياة ذكراً باقياً شغف وحنين . ها نحن أولاء بشارع المدارس أمام كلية فرنسا (College de France) نصب أمامها تمثال كلودبرنار ، وأقفلت أبوابها فى هذا الفصل فصل الإجازات المدرسية . ومع إقفالها اخترق خاطرى أبوابها ، وحاولت أن أستعيد فى ذاكرتى صورتها فألفيتنى داخلا إليها منعطفاً عن يمينى إلى قاعتها الكبرى لأستمع كما كنت من خمسة عشر عاماً أستمع إلى برجسن ، ثم داخلا إليها ميمماً بهوها الذى يواجه الباب لأستمع كما كنت أستمع إلى دركيم . لقد مات دركيم وشغل برجسن بالدعوة للعلم ولفرنسا ، وما أزال أرانى جالساً فى هذه القاعات الفسيحة يتابع ذهنى آراء هؤلاء الفلاسفة الجبارين ومن حولى سيدات جاوزن الأمومة وشابات لما يدركنها ، وقسس ورجال من كل الطبقات ، والكل مصغ إلى هذا الفيض من نور التفكير العلمى السامى يرتفع بصاحبه فوق كل اعتبار دينى أو غير دينى ، ويحله من كل قيد اجتماعى أو مادى ، ويحلق به فى سماوات رفيعة ينسى فيها نفسه والعالم المحيط به ، ويستمع لهؤلاء الدعاة إلى مدينة فاضلة جديدة تقوم على أسس العلم الواقعى الصحيح ، لا على صور وهمية تخلقها الخيالات والأحلام . ويخرج المستمعون من هذه القاعات تحوى كل واحدة منها عالماً كاملا يعتقد صاحبه أنه عالم الحقيقة والكمال فلا يأبهون ساعة خروجهم لضجة الحياة المحيطة بهم ، بل ترى جماعات تسير منهم يتحدثون فيما سمعوا ويبدى كل منهم عليه ملاحظته ، وترى آخرين يسير كل واحد منهم منفرداً يحاول ذهنه أن يضع ما عرض عليه من النظريات موضع التحقيق والنقد العلمى . وهذا الاتجاه الذهنى عندهم هو الذى يدعو الكثيرين منهم إلى

الاعتكاف فى قهوة أو محل حلوى أو نحو ذلك يجترون فيه هذا الغذاء العلمى الدسم يرددونه ويلوكونه وينقدونه يحاول كل منهم أن يكوّن لنفسه فكرة ذاتية منه تتصل بتفكيره فى نظام الحياة والعالم ليجاهد فى حدود طاقته كى يسمو بنظام الحياة والعالم إلى مثال فكرته .

ومن عند كلية فرنسا صعدت يسرة إلى سان بجاك لأقف هنيهة أمام كلية الحقوق أذكر لديها سنوات ثلاثاً كانت خلالها مثابة درسى ومآب تحصيلى ، وأذكر كذلك أنى كتبت على مناضد مكتبتها الغنية بألوف المجلدات الحقوقية والقضائية صحفاً غير قليلة من رواية « زينب » ، كنت أجد فى كتابتها فسحة واستراحة من عناء البحث والدرس . يارعى الله أيام الشباب وذكرت دائماً بالخير ! إنى لأرانى الساعة داخلا إلى الدهليز المؤدى إلى المكتبة متخطياً إياه أقفز فى نشاط ومرح عشر درجات أو نحوها لأكون فى بهو الكلية يخطر فيها الشباب فتياناً وفتيات بين منتظر درسه وخارج منه ، ويسرع آخرون إلى هذه المدرجات الكبيرة (الأمفيتاترات) يجلسون منها فى المكان الخالى ، ومنهم من يدخل فى أعقاب الأستاذ ، ومنهم من يضيع زمناً من درسه ، وأكثرهم متأبط كراسة يسطر فيها ما يلقى من علم كما يراجع ما فيه من نظريات وآراء من بعد . والأساتذة فى عباءاتهم الطويلة وقبعاتهم الحمراء الصغيرة لا تكاد تستر إلا بعض رءوسهم يسيرون فى وقار ورزانة ، ومن ورائهم حاجب علقت فى رقبته سلسلة طويلة من معدن وهو يحمل بين يديه عدداً من الكتب قلّ أن يفتح الأستاذ منها كتاباً ، لأنه يحيط بما فيها إحاطة مدقق ناقد ذى رأى مستقل وفكرة تكونت بعد قراءة ضعاف هاتيك الكتب التى يحملها حاجبه واتسقت له فى كمال شبابه ، ثم جعل يصقلها ويدقق فى تحديدها وينفى كل ما يراه من زيف يختلط بها ، حتى إذا بلك حين تسمعه يلقيها وهو يهز رأسه الأبيض الشعر الجميل المشيب ، تسمع الفكرة ملكت صاحبها كما ملكها ، فسمت به وسما بها ، وتملكته بمقدار ما أحبها . وصار يقلبها أمامك فى حنان وإعزاز كما تقلب أنت طفلك العزيز قضيت لياليك وأيامك فى العناية به وأعانك القدر على إنجاحه فصار عندك كل شىء وصار عليك أعز من نفسك ، وصرت تتعصب له وتغامر فى سبيله على حين أنت متسامح فى شأن ما سواه غاية التسامح . وذكرت وأنا فى موقفى هذا من كلية الحقوق ذات مساء كنت أستمع فيه لجواز العلوم الجنائية إلى العلامة الكبير جارسون ، الكبير على صغر جسمه وقصر قامته وبريق عينيه الضيقتين . وفيما هو يتحدث ضرب لنا مثلاً ، رجلاً قصد إلى قتل ملك ، فأصاب شخصاً يشبهه ولم يصبه ، أفيعاقب على جريمة قتل الملك وتطبق عليه الظروف المشددة ؟ وآخر أطلق عياراً على سرير شخص فلم يكن فيه ما جزاؤه ؟ فقلت أنا :

إن المثل الأخير هو مثل الجريمة المستحيلة ، وإن المثل الأول فيه جريمة مستحيلة بإزاء الملك ، ولكنه القتل عمداً بالنسبة لمن وقع عليه . وهنا أبرقت عينا جارسون وانطلق فى فيض من الحجج بدأها بقوله : لكنى لا أسلم يا سيدى بالجريمة المستحيلة . ليس هناك شىء اسمه الجريمة المستحيلة ؛ فالركن المعنوى هو كل شىء ، والركن المادى ثانوى بالنسبة له . ولو أن الركن المادى كان الأول فى التقدير لما عوقب الشروع بعقوبة الجريمة التامة ولو كان شروعاً خائباً . وانطلق فى تدليله انطلاقة انقلب أمام أنظارنا أثناءها شاباً عالى الكلمة متواتر الحجة ناهض الدليل ، حتى كنا جميعاً فى صمت ذاهل هو صمت الإجلال والإذعان . كذلك كان أستاذنا المغفور له جارسون ونحن نسمع له فى شتاء ١٩٠٩ – ١٩١٠ وكذلك ارتسم أمامى ساعة وقفت أمام كلية الحقوق ، وكذلك هو الآن ، وكذلك ستبقى فى نفسى صورته . وكمنبر هذا الشيخ الهرم السن الصغير الجسم الشاب القلب المتوقد الذكاء كانت تقوم منابر فحول القانون الجنائى والمدنى والتجارى والدولى وغيرها من هذا العلم الذى ينظم صلات الأفراد والجماعات والدول ، والذى يتصل من ناحية بأسمى النظريات الإنسانية والاجتماعية ، ومن الأخرى بأدق تفاصيل الحياة العملية فى تفاعلها تفاعل تعاقد وخروج عليه ، وإجرام وإمعان فيه ، وحرب وما يتبعها من عدة هلاك ودمار وإجراءات تنظيم ذلك كله ، فتهون على الجمعية من سيئاته قدر المستطاع ، وتجنبها شروره ما أمكن الإنسان أن يجنب نفسه الشرور .

ما أكبر رسالة كلية الحقوق وهذه غايتها ، وعلى منابرها يجتمع النظر والعمل على سواء ! . لكن جلال الرسالة لم ينسنى حين ذكرت أيام طلب العلم مآب هذا العلم حين الامتحان . وإنى ليخيل إلىّ أن الامتحانات لو لم توجد لكانت علاقة الطلبة والأساتذة أكثر إجلالا من الأولين وأكثر عطفاً ومودة من الآخرين ، ولما رأينا ما فى علاقاتهم من شوائب الضغينة المستخفة من الشباب بالمشيب ، والازدراء المستكبر من المشيب للشباب . أم لعل الامتحانات ليست وحدها مبعث هذه الشوائب ؛ فلها كذلك مبعث من ثورة الشباب يحاول الخروج على ما يسميه قواعد المشيب ونظمه البالية ، ودفاع المشيب عن هذه النظم فى انتظار اليوم الذى ترد الحياة فيه عقل الشباب إلى رأسه ، فيدرك أن الثورة ليست إلا كبرياء الوهم الغرور ، وأن التطور فى أناة وروية وعلى مهل حذر هو وحده سبيل الإنسانية إلى الكمال .

ومن شارع سان جاك درنا إلى طريق سان ميشيل مجتازين إليه شارع سوفلو كظته حوانيت كتب الحقوق ، وتطل نهايته القريبة من كلية الحقوق على البانثيون ، فى حين تطل نهايته المتصلة ببولفارسان ميشيل على حديقة الكسبور الرشيقة البديعة . ثم تخطينا ميدان

السوربون ووقفنا نواجه مثوى الفن والأدب والفلسفة فى نظامها العلمى المستند إلى التاريخ المطمئن أكثر من استناده إلى ما فى كلية فرنسا من ثورات توجه تاريخ التفكير الإنسانى وجهات جديدة . كم لهذا الاسم – اسم « السربون » – من رنة فى العالم كله ! وكم لأساتذته فى نفوس طلاب علمهم وفى نفوس علماء الأرض جميعاً من مكانة سامية ومقام رفيع ! وكما كنت وأنا طالب حقوق أتردد الوقت بعد الوقت على كلية فرنسا فقد كنت على السوربون أكثر تردداً ، وكان لى بالاستماع إلى بعض كبار أساتذته أمثال مسيو كروازيه ومسيو لانسون ولع خاص . وما أزال حتى اليوم أذكر هذه النغمة المطمئنة الرضية التى كان يلقى بها العميد كروازيه محاضراته عن أدب اليونان وعن فلسفتهم ، حتى لتحسبه أفلاطون يتحدث إلى المشائين من تلاميذه ، وإن كان تلاميذ كروازيه كلهم جلوس فى « الامفيتياتر » الكبير يتسع لعدة ألوف من بينهم الشباب والشيب ، ومن بينهم نسوة يعدلن الرجال إن لم يفقنهم عداً . وفى نغمته الرضية أسبغ عليها علمه ومشيبه مزيداً من الطمأنينة والرضا كان هذا العالم العظيم يصل ما بين أدب الأقدمين وفلسفتهم وأدب عصرنا وفلسفته ، ويجمع بذلك فى هذا البهو الفسيح قروناً من الزمان عدة تتالت متصلة فى تتابعها على الزمان واصلة بسلطانها الذهنى بين مختلف الأمم فى مختلف بقاع أوربا ، بل فى مختلف بقاع العالم القديم كله ، ويخلق من هذه الصلة أمام سامعيه صورة من وحدة الحياة الإنسانية على هذا النحو فى مختلف بقاعه وأزمانه . وهو لم يكن ينسى فى مقارناته أن يصل بين أدب الإغريق والأدب الفرنسى . لكنه كان يشير إلى مجمل من هذه الصلة تحتاج إلى تفصيل يكفله لك مسيو لانسون فى محاضراته عن تاريخ الأدب الفرنسى وبخاصة أيام تأثر هذا الأدب بشعر اليونان والرومان ونثرهم فى عصر راسين وكورنى . وما كان أبدع بيان مسيو لانسون حين شرحه كيف استقل الأدب الفرنسى بنفسه بعد ذلك رويداً رويداً ، وكيف بنى استقلاله على أسس من هذه الصلة بينه وبين الأدب القديم ، ثم كيف تخلص فى القرن الثامن عشر من هذا الأدب القديم وإن لم ينكره ولا أنكر عليه ما كان له من فضل فى نهضة الأدب فى فرنسا وفى أوربا كلها.

إلى يسارك وأنت منحدر فى الزقاق المؤدى من السوربون إلى شارع المدارس كانت تقع مدرسة العلوم الاجتماعية العليا الحرة أثناء دراستى بباريس ، ولعلها حتى اليوم ما تزال فى هذا المكان . وكنا نذهب إلى هذه المدرسة مقابل اشتراك زهيد نؤديه لنستمع فيها إلى محاضرات فى شئون اجتماعية مختلفة يلقى المحاضر منها اثنتين أو ثلاثاً حسب الموضوع الذى يختاره وقد يفصل أسبوع بين المحاضرة والتى بعدها ، وقد يفصل بينهما أسبوعان أو أكثر . وكانت

هذه المدرسة أقساماً يتصل كل قسم منها بعلم من علوم الاجتماع . والمحاضرون ليسوا دائماً من كبار الأساتذة ، بل بينهم من الشبان ، ومن غير المشتغلين بالتدريس ، من تشغل أذهانهم فكرة أو نظرية خاصة يدرسونها ويلقون على السامعين نتائج دراستهم فيها ، ويطلبون إلى مستمعهم مناقشتهم فيما قد تعنّ لهم المناقشة فيه . ويقع فى أحيان كثيرة أن يكون من بين المستمعين من هو أكثر تضلعاً من المحاضر ، ومن كنا نجد فى الإصغاء إليه لذة ومتاعاً يشاركنا المحاضر فيهما ولا يأبى أن يعترف ، إذا هو اقتنع بخطأ رأيه أو بنقص البحث فيه ، بما أدى به إليه اقتناعه . وقد يطلب إلى المستمعين مهلة ليقوم فيها من جديد بدراسة فكرته وليلقى بعدها محاضرة يرجو مناقشه أن يكون من بين المستمعين إليها ، ليكون البحث بينهما أداة للوصول إلى الحقيقة . فالوصول إلى الحقيقة يجب أن يكون الغاية العليا التى يتجه إليها نظر الإنسان المهذب .

يقابل شارع المدارس شارع مدرسة الطب تقع فيه كلية الطب إحدى كليات جامعة باريس الكبرى . وعلى مقربة من كلية الطب تقع مدرسة الفنون الجميلة العليا . هذا خلا عدداً من المدارس الحرة ومن أبهاء الجماعات العلمية يقصد إليها كبار الأساتذة يلقون فيها محاضرات علمية وفلسفية واجتماعية وأدبية ويبعثون فيها بذلك إلى الذهن وإلى الحس وإلى العاطفة ما ينبه نشاطها ويدعوها للإمعان فى البحث الدقيق عن الحق والخير والجمال ، مما تدعو إليه كلية فرنسا وكلية الحقوق والسوربون ومدرسة العلوم الاجتماعية العليا ومدرسة الفنون الجميلة ، وهذه المدارس والكليات الكثيرة الجمة النشاط المنصرفة للدراسات العليا ، والتى تجعل من هذا الحى اللاتينى القلب الحساس والذهن المفكر والعاطفة المتقدة والفن المبدع فى باريس جميعاً .

أى المجموعتين أبهى جمالا وأشد بهراً : مجموعة الحى اللاتينى هذه ، أم مجموعة اللوفر والتويلرى والكونكورد والشانزليزيه ؟ هذه الأخيرة هى الجمال البارع أمام النظر والزينة البادية لكل عين . أما الأولى فهى القلب الذى يوزع على باريس وعلى كثير من أنحاء العالم أسباب الحياة الإنسانية السامية . لذلك أحسب أن باريس بحيها اللاتينى أشد تيهاً وفخراً ، وأنها تعد فى مجموعته التى أشرنا إلى بعض ما فيها أكبر سبب مجدها ؛لأنه مصدر كل مجد لها على المسرح وفى الفن الجميل وفى العلم وفى الطب وفى الحقوق وفى الأدب وفى كل ما تزدهى به باريس على كل المدائن .

وفى باريس مجموعات شتى ، مجتمع بعضها يصل بينه تجاوره ، ومشتت بعضها يصل

بينه تشابهه . ومن المجموعات التى تزدهى بها باريس ازدهاءها بالمجموعتين اللتين وصفنا ، مجموعة عجائبها وآثارها وعماراتها ، من مثل كنيسة نوتردام والأنفاليد مستقر قبر نابليـون وبرج إيفل والبانثيون واللوفر وما يخضع لعظمته من سائر المتاحف . وهذه المجموعة هى ما يقصد إليه زائرو باريس كما يقصدون إلى مجموعة ملاهيها فى المولن روج والفولى برجير والأولمبيا وأشباهها من الأبهاء الموسيقية البديعة التى تجتمع فيها أسباب الفن بأسباب اللهو ، وجمال الرقص بوضيع الرغبات . ذلك بأن أمثال تلك المجموعة الأثرية أو تكاد ، وهذه المجموعة الناعمة باللهو والمسرة ، هى كل ما يتحدث الأجانب من زوار باريس عنه كأنه كل ما فى باريس . على أنى كنت دائماً عميق الشعور بأن أقوى ما تنبض به حياة باريس ليس فى هاتين المجموعتين وإن كانتا فى الطليعة من مواضع فخرها . أما حياتها النابضة فهى فى هذا الحى اللاتينى ، وفى تلك المظاهر التى تتصل بقوس النصر ، ثم هى كذلك فى مسارحها . بل لعل للمسارح على كل مجموعة سواها فضل الاقتدار على صلة ما بين الفرنسى والأجنبى بما لا تستطيعه الآثار ولا الملاهى ، وبما لا يستطيعه الحى اللاتينى لا يتذوق ما فيه إلا شاب مقبل على العلم والفن ، أو شيخ اتصل بهما منذ شبابه ثم آلى أن يجعل منهما ختام حياته . أما مسارح باريس فتجمع من الثمرات أطيبها لتجليها على نظارتها بما يجعل منها سحراً يفتن العقول ويملك القلوب . وإن فى العشرات الكثيرة من مسارح باريس لما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وما فيه للروح غذاء وللفؤاد راحة وللقلب مسرة . فيها من ثمرات الذكاء الفرنسى أطيبها ، ومن ثمرات الذكاء العالمى أجلها . ولو أن شيئاً كان لباريس جناناً يترجم عما يدور بعقل العالم ولب الأديب وجنان الفنان ومطامع الوضيع وشره الحاكم وقسوة رجل المال ، ويكشف بذلك ما تنطوى عليه الأضالع وما يعبث بالعواطف ويلعب بالأهواء — لكانت المسارح هى هذا الترجمان القوىّ الصادق . ولم لا ! وهل من بين آثار الفن ما يمتاز بكثرة الفنانين الذين يتعاونون فى استظهاره ما يمتاز به المسرح ؟ وهل كالمسرح فن يعبر بمثل قوته عن كل معانى الحياة ؟ إنك لتقرأ القصة القصيرة أو الطويلة فتترجم كما يحلو لك ما وضعه الكاتب من صور ومعان وعواطف وتكون أنت فى الوقت نفسه بطل الرواية وبطلتها وكل شخص من أشخاصها . وإنك لترى الصورة أو التمثال فتعبره من المعانى ما يشاء خيالك متأثراً بظروف حياتك . ومثل الكتاب والصورة والتمثال غيرها من آثار الفن . فيها الفنان الذى أبدعها وأبدع ما فيها من قوة أو عظمة أو جمال ، وفيها أنت تترجم هذه القوة أو العظمة أو الجمال كما تفهمها أو كما تريد أن تفهمها . أما المسرح

ففيه الكاتب ، وفيه فنانون قد لا يقل أحدهم عن الكاتب عظمة ، يترجم كل منهم ما أراد الكاتب أن يظهره لك من الصور والمعانى . فإذا كان الكاتب عظيماً فى فنه ، وكان الممثلون الذين يترجمونه لك عظماء كذلك فى فنهم ، كان مشهد الرواية التمثيلية لا شك قطعة فنية نادرة الجمال .

فإذا أضفت إلى ما تقدم زينة المسرح وما يتصل به فى بعض الأحيان من موسيقى تعين الممثلين خير عون على أداء أدوارهم ، كنت ميالاً كل الميل إلى مشاركة أنصار المسرح فى رأيهم فى امتيازه على غيره من الفنون ، أو بعبارة أدق فى جمعه مختلف الفنون معاً لتكون أكثر قوة فى أداء ما فى الحياة من معان وصور مختلفة أشد الاختلاف متناسقة فى اختلافها أشد التناسق .

تحدثت من قبل عن الكوميدى فرانسيز التى تعتبر فى العالم كله أبرع مسارح العالم دقة فن ومثال جمال . ويلى الكوميدى فى عرف الفرنسيين مسرح الأوديون . وكلا المسرحين قوميان تتعهدهما الحكومة ولا يدخلها من الممثلين إلا الذين لهم فى فنهم مقام محمود . لكن ذلك لا يعنى أن ما سواهما من المسارح لا يمتاز هو أيضاً بمثل ما يمتازان به . بل إن كثيراً من الممثلين والممثلات الذين رفعوا للفن المسرحى فى فرنسا مناره ، وكانوا نجوماً ساطعة فى سماء هذا الفن فى العالم كله ، قد ظلوا حياتهم أو أكثرها بعيدين عن هذين المسرحين . وهذه سارا برنار ، وهذا ساشا جيترى ، وأضرابهما كثيرون لم يلتحق أحدهم ببيت موليير أو بالأوديون . والممثلون الثائرون على عرف الفن فى زمن من الأزمان والذين يخلقون فى الفن ويجددون ، هم دائماً بعيدون عن أن يظلهم علم الجماعة وإن كان كل منهم علماً يستظل به . لذلك كان لكثير من المسارح فى باريس من المقام فى نظر الفنانين ما للمسارح القومية ، وكان لها إلى جانب ذلك فضل الإقدام على التجديد فى الفن بتمثيل روايات قد تظل عشرات السنين قبل أن تقرها هذه المسارح القومية . فإذا هى أقرتها كانت غرة فى جبين الروايات التى تمثل فيها ، وحازت من رضا الممثلين عنها ، وتقدير النقادين لها ، وإقبال الجمهور عليها ، ما يدلك على فضل الذين سبقوا بتقديمها للجمهور ولنقد رجال الفن .

ثم إن لهذه المسارح غير القومية فضلاً ؛ ذلك أنها أدل من المسارح القومية على تطور الروح القومية . وأنت إذا سمعت فى الكوميدى فرانسيز أو فى الأوديون روايات راسين وموليير وهوجو وبرنشتين فإنما تسمع المعانى الثابتة فى النفس الفرنسية مما لا يسرع إليه التغيير . أما ما تسمعه فى كثير من المسارح الأخرى من الروايات الجديدة ففيه مظاهر البحث

العلمى عند آخر طور من أطواره . بل بعد آخر طور من أطواره أحياناً . وفيه ما تأثرت به هذه المعانى الثابتة إلى حد كثير أو قليل حسب ما مرَّ بفرنسا أو بالعالم من صور التطور المختلفة . ولقد يدهشك أن ترى هذه الآثار مصوغة فى قوالب كلها الفكاهة والمجون ، كما هو الحال فى رواية (قسيسى عند الأغنياء) التى تمثل على مسرح سارا برنار ، وفى رواية (الحقيقة العارية) التى تمثل على مسرح باريس ، وفى رواية (لأول هذين الرجلين) التى تمثل على مسرح باليه رويال . وقد تكون هذه الآثار أقرب إلى الجد منها إلى الفكاهة ، كما تراها فى رواية (السجينة) على مسرح (فمينا) . على أن الفكاهة فى هذا الوقت أغلب . وترجع غلبتها إلى أن الناس لا يزالون منذ أيام الحرب ينفرون من كل منظر يثير الألم ويهرعون إلى حيث المجون واللهو وما يثير فى النفس شهواتها الدنيا . وكما انتقلت موسيقى الرقص من الفالس وما إليه من نغمات هادئة أكثر الوقت إلى الجازباند وما إليه من نغمات — — أستغفر الفن — بل من ضجات وحشية مضطربة ثائرة ، كذلك انتقل الفن المسرحى فى أكثر دوره من رزانة الحكمة وسكينة الفن إلى ثورة الحواس واضطرابها ، ولست أدرى أى هذين الأمرين إلى الطبيعة أقرب . لكنى أميل إلى الاعتقاد بأن الفن وإن ضج وصخب ميال دائماً إلى شيء من الاتساق والتجاوب أكثر مما فى هذه الموسيقى وفى هذه الروايات الثائرة بالناس إلى المجون وإلى اللهو وإلى حكم الشهوات . على أن هذا المظهر من مظاهر التطور الطبيعى الذى نشأ عن الحرب له هو أيضاً قوته وإبداعه . ولقد ترى مظاهر المجون التى كان ينفر منها الذوق قبل الحرب أشد النفور قد هذبت ونظمت حتى كادت تصبر هى أيضاً فناً ، بل حتى صارت بمقدرة الممثلين فناً جميلاً إن أثار فى النفس الطرب الماجن فلن يثير منها نفوراً أو اشمئزازاً . ولعل الزمن كفيل بالتوفيق بين هذا المظهر الجديد من مظاهر الحيوية الإنسانية وبين الفن فى أرقى صوره وأسماها . ولئن تعذر ذلك على أهل هذا الجيل ممن شهدوا الحرب ومن لا تزال آلامها وأحزانها تحز فى قلوبهم وأفئدتهم حتى ليطلبون فى اللهو المضطرب منجاة من هذه الآلام والأحزان ، لقد يكون لأهل الجيل الناشئ اليوم والطامح بإخلاص وحرارة إلى السلام والسكينة أن يقوم بهذا التوفيق ، وأن يعيد إلى الفن المسرحى كل ما يرجو الفن من اتساق وتجاوب .

وليس معنى ما سبق أن الروايات التى تمثل اليوم على مسارح باريس ليس فيها ما كتب له البقاء ؛ فمنها ما يفوق كثيراً من الروايات التى تمثل على المسارح القومية قوة ودقة . كما أن الحرب الأخيرة وما خلفت من مظاهر ليست عرضاً ضئيلا على الحياة بقاؤه ، بل

هى وقفة من وقفات الإنسانية عند أطوار الانتقال الكبرى ، إن لم تظهر كل آثارها فى فترة قصيرة كالفترة التى انقضت بين انتهاء الحرب وهذا الوقت الحاضر ، فهى لا بد ستظهر متى هدأ غليان هذا البركان العالمى وعادت إلى الأمم قوة التفكير المطمئن الهادئ . لكن كثيراً من هذه الروايات التى تمثل اليوم فى مسارح باريس ستبقى بين آثار الفن الماضى وآثار الفن المقبل ، وكان فيها بعض نشاز لا أدرى أهو يصرف عنها بعض اهتمام الأجيال المقبلة أم يجعلها أدعى للعناية بها والإقبال عليها .

ومهما يكن مصير هذه الروايات فستبقى مسارح باريس فى المستقبل كما هى اليوم وكما كانت فى الماضى آية من أروع آيات فتنتها ، وسيجد الذين يقصدون باريس فى مسارحها ما يزيد ليلها على النهار جمالا فإذا هم غادروا هذه المسارح وقد انتصف الليل أو كاد ألفوا ليل باريس يقظاً وفنها نشيطاً ، وإذا كتب عليهم أن يغادروا باريس ناجتهم مسارحها مع ما يناجيهم من كل مافيها من فتنة وجمال وسحر : إنى أنا الشباب الضاحك السن المقبل على جد الحياة ولهوها بكل مافى الشباب من حرارة . وفى أحضان الشباب حياة ما تزال كل يوم تتجدد . وهى كل يوم خير منها بالأمس . ومن فاته الشباب فاتته الحياة . وليس الشباب شباب الجسوم ، ولكنه شباب القلوب .

إذا كان للمسرح فى باريس كل هذه الفتنة فإن لفن مسرحى يتصل به ويختلف عنه فتنة تزيد عند قوم عليه ، وإن لم تنل عندنا نحن أهل مصر والشرق كل هذه الحظوة ؛ ذلك الفن هو الموسيقى . ولقد يكون الجيل الناشئ بعدنا أشد منا لموسيقى الغرب ذوقاً كما أنّا – فيما يخيل إلىّ – أكثر قدراً للأدب والمسرح الغربى من الجيل الذى سبقنا . والأوبرا هى معبد الموسيقى الأكبر فى باريس ، وهى جديرة بأن تكون كذلك وفيها من روعة العمارة وجمال زخرفها ما تزدهى به على أبدع الهياكل وأجمل الكنائس أيًّا كان طرازها : والقلم لا ريب يضل بى إذا أنا حاولت وصف هذا المعبد ، كما يضل الزائر للأوبرا فى مختلف أنحائها للمرات العشر الأولى من زيارته إياها . وهو فى أى ناحية كان ضلاله فيها سعيد بهذا الضلال الذى يؤدى به من بهو إلى بهو ومن مقصف إلى طنف وكلها روعة تتلو روعة ، تنتقل إليها جميعاً على سلم بالغ من الفخامة حداً تتضاءل أمامه كل روعة . فإذا خرجت إلى شرفتها المطلة على طريق الأوبرا أخذت أنواره البديعة اللألاء بنظرك مأخذ أنغام الموسيقى الشجية بسمعك . فإذا عدت بعد ذلك لتسمع الرواية الموسيقية التى تمثل رحت من زينة المسرح ، ومن غناء المغنيات ، ومن رقص الراقصات ، ومن موسيقى مطربة ساحرة فى نوع من البهر

تذهل معه عن نفسك ، ثم لا يردك منه إلا بهر مثله بالمتفرجات المستمعات جئن إلى الأوبرا كاملات العطر والزينة ، فبعثن فى جوها المرح الطروب مزيداً من المرح والطرب يجعلك تود لو أن الهياكل والمعابد كلها كانت على هذا المثال ، ولو أن الإنسان كان يجزى بعد الموت عن أعماله كما يجزى اليوم بهذا المتاع البارع عن مشقة يومه ، وكما يتلهى به المترفون إضاعة للوقت لأنهم لا يعرفون فى يوم مشقة .

والأوبرا هى القمة من هذا الفن المسرحى المتصل بالتمثيل . فالتمثيل فيها تطغى عليه الموسيقى ويطغى عليه الغناء والرقص أشد الطغيان . وبين هذه القمة من الفن الموسيقى وبين التمثيل المسرحى درجات ، تبدأ عند اختلاط طرف من الأغانى والموسيقى بالتمثيل بمقدار لا يزيد على ما يدخله بعض الكتاب من شعر فى نثرهم ، ثم تتدرج لتكاثف التمثيل ، ثم لتزيد عليه ، ثم لتدنو من الأوبرا فيما تشهد من روايات بالأوبرا كوميك ، حظ التمثيل فيها أكثر ظهوراً من مثله بالأوبرا ، ولكنه قليل الظهور ومتصل بالغناء وبالموسيقى أوثق الاتصال . وهذا التدرج فى معاهد الموسيقى يوازيه تدرج مثله فى الموسيقى نفسها . فالموسيقى التى تسمعها فى الأوبرا كوميك ليست هى الموسيقى الكبرى التى تسمعها فى الأوبرا ، بل هى موسيقى أخف وزناً وأسهل مساغاً عند نفوس أمثالنا الذين لم تتصل هذه الموسيقى الأوربية بغرائزهم منذ نشأت هذه الغرائز . والغناء فى هذه التفرقة كالموسيقى ؛ ولذلك ترى الشرقيين أكثر إقبالاً على الأوبرا كوميك منهم على الأوبرا ، كما أن أكثر الغربيين أشد للأولى ميلاً ؛ لأنها لا تقتضى نفوسهم وعواطفهم ما تقتضيه الموسيقى الكبرى . فأما المسارح الموسيقية الأخرى من مثل (البوف بارزين) ومسرح (موجادور) وغيرهما فموسيقاها وغناؤها ورقصها فيها من الدعابة ما يجعلك أشد حباً للهوها ومرحها منك طرباً بموسيقاها وغنائها ، وإن كانت أدوارها جميعاً أكثر رواجاً فى أنحاء باريس وفى أنحاء العالم الغربى كله من الأدوار الفخمة الضخمة التى تغذى نفوس نظارة المسرحين القوميين : الأوبرا والأوبرا كوميك .

* * *

أتراني وقد تحدثت عن بعض ما فى باريس من عمارة وعلم وفن وأدب متناولاً ناحية أخرى أشد اتصالاً بالحياة ، ولكنها تنال من عناية السائح فى باريس حظًّا غير قليل ؟ أترانى أتناول حديث الطعام والمطاعم ؟ فالطعام فى باريس فن جميل ، وطهاته هم ولا ريب من خير طهاة العالم ، حتى لتراك حين تقرأ عن فنادق لندن وفينا وبرلين وغيرها من كبريات العواصم تقرأ من حسناتها أن طهيها فرنسى . ومطاعم باريس فيها فن تمتاز به على غيرها من المطاعم

وأكثرها له طابع خاص فى عمارته وفى طريق تقديم الطعام لزبائنه وفى اختيار الأنبذة التى تزيد لوناً أو آخر من الطعام مساغاً ولذة . ولخدم هذه المطاعم أدب خاص بالطعام يجعلك له أكثر اشتهاء . على أن لبعض المطاعم من الطابع ما يدعو الأجانب إلى زيارته ، كما يزورون اللوفر وقبر نابليون وبرج إيفل ، أو كما يزورون متحف جريفان حيث تعرض الصور الشمعية تمثل الحياة تمثيلاً حياً . وأشهد لقد كان لمشوى (الرين بدوك) ولمشوى ميدان سان ميشيل من الجاذبية ما كان يذهب بنا إليهما فى اغتباط وبهجة . ولغيرهما من المطاعم فى أنحاء مختلفة من باريس مالهما من جاذبية لبساطة الأثاث مع إبداع الطهى أولطرافة محببة فى نظامها . ولست بناس أول مرة ذهبنا فيها إلى مشوى الرين بدوك : دخلنا فإذا بنا فى قاعة ضيقة لا تزيد على ستة أمتار فى مثلها ، يجلس إلى موائدها عدد يزيد على الأربعين أمامهم طعامهم وشرابهم وإلى جانبهم فى ناحية من المكان مشوى تدور عليه دجاجة لا يديرها أحد وهم جميعاً فى جذل ومرح ، والخدم لا يكادون يشقون لهم طريقاً من بينهم لضيق المكان بهم ، ويحمل أحدهم وهو فى لباس الطهاة أصناف (الهرديفر) على صورة لم يألفها قط نظرنا . فالزبدة قطعة ضخمة تزن أكثر من سبعة أرطال أو ثمانية وضعت فى « ماجور » كبير يقدم إلى كل طالب (هرديفر) وتقدم معها كميات ضخمة من اللحوم والأكباد السمينة والسمك والسلطات المختلفة وغيرها مما لا يكاد الإنسان يجد بعده فى نفسه للطعام مكاناً ، لولا مرح المطعم ولذة الشواء والجدل الذى لا ينتهى بين الآكلين والخدم ، جدل تشوبه النكتة الظريفة من هؤلاء ومن أولئك ، وانتظارك حتى يجىء اللون الذى طلبت ، فإذا بك حين مجيئه قد تجددت شهيتك ، وقد فكرت فى طلب غيره . وهذا المطعم فيه – خلا هذه الغرفة التى دخلت إليها أول مرة – غرفة مثلها فى « البدرون » وغرفة مثلها فوقها ، وكان الله يحب المحسنين . أما مشوى سان ميشيل فأفسح مكاناً وإن لم يكن أقل ازدحاماً . وغير هذين المطعمين مطاعم مختلف ألوانها مختلف طابع كل منها ، وإن ألف بينها جو باريس كله الظرف والرقة ليتهما كانا وحدهما طابع أهل باريس فلم تشبهما شوائب تجعل الكثيرين أشد حباً لباريس منهم لأهلها .

ماذا فى باريس غير ما ذكرت مما يلفت النظر ويستنفد الوقت فى المتاع به ؟ أرى الجواب يسرع إلى نفسى : وماذا تراك ذكرت من باريس ؟ ثم ماذا تراك تعرف منها برغم ما قضيته من السنين فيها ؟ وهذا حق . فباريس عالم ، بل فى كل ناحية من باريس عالم . ثم إن كثيراً مما أعرف منها لم يكن موضع عنايتنا فى سفرنا فلم أذكر عنه شيئاً . وأنا إنما قصصت

ما كنا نزور وما كنا به نشغف ، وقصصته فى إجمال ما كان لى أن أعدوه إلى التفصيل أو يضيق هذا الكتاب بأيامنا فى باريس وحدها . وأشهد أن هذا الذى أغرقنا أنفسنا فيه من حياة باريس كان عظيم الأثر فى عزائنا بما كشف لزوجى عن آفاق فى الحياة جديدة ، وما جلا أمام نظرها من صور الجمال فى الحياة حتى لكنا نتساءل أى هذه الصور أشد جمالاً ، فلا نجد على سؤالنا جواباً . جلست يوماً أتحدث إلى جماعة من أصحابى ، وكان لأحدهم بلندن ولع قديم دعاه يومئذ أن ينظر إلى باريس نظرة فيها جفوة وقسوة ، ثم شاءت المقادير أن تنقلب جفوته وقسوته حناناً وحباً لباريس ، وقد سمعنا نفاضل بين ما فى باريس فنقدم مسارحها على متاحفها ومتاحفها على عمارتها ، ونذهب فى هذه المفاضلات إلى مدى بعيد ، فقال :

والله يا أخى إنك لترى باريس منذ يدخلها القطار من أية ناحية من نواحيها حتى يخرج من ناحيتها الثانية ومن حين ينزل المطر من سمائها حتى يصل إلى حمم الأرض ، فلا ترى إلا حسناً يزحم حسناً ، وجمالاً يأخذ بتلابيب جمال .

وكانت لأحد كبار المصريين عبارة ظريفة رد بها على سائل يسأله : أيوافق على ذهاب ابنه فى بعثة لباريس دون أن يخشى عليه الفتنة ؟ فكان جواب الكبير : وما الخير فى ذهابه إلى باريس إذا لم يفتن بها ! أذهب به إليها ، فمسيرته فى طرقها وشوارعها أجدى عليه فى تكوينه للحياة وحسن ذوقه إياها من كل درس يمكن أن يتلقاه هنا .

على أن باريس مدينة ، مهما يكن فيها من جمال ، وحياة المدينة المكتظة بالحياة المليئة بالعجلات المشبع جوها بأنفاس الناس ودخان المصانع وبنزين السيارات وكهارب الجو وكل البقايا والفضلات ، تثقل على الصدر وتدفع أهل المدن لالتماس الهواء الطلق . ونحن كنا إلى الهواء الطلق أشد من كل من سوانا احتياجاً ، فأعصابنا كانت أشد ما فينا كلالا . والهواء وفسحة الجو خير ما يبرئ الأعصاب من كلالها . ومهما تكن التويلرى واللكسمبور وما فى باريس من حدائق كثيرة كفيلة بالتنفيس عن الناس فى جو المدينة المثقل بما فيه ، فهى فى جوف المدينة ، وهى لذلك متأثرة بجوها وما يحمل . لذلك أحاطت بباريس غابات وأحاطت بها ضواح يهرع أهل باريس إليها عادة كل أحد ، وكنا نحن نهرع إليها فى كل أسبوع مرات . وغاب بولونيا ألصق ضواحى باريس بباريس . وغاب بولونيا مرتع جمال ومسرح نعيم ومجمع مسرة ، تتصل فيه حياة المدينة بحياة الضواحى وحياة العمارة بحياة الغاب . فيه البحيرات تتخلل أشجاره تخترقها الطرق البديعة النظام .

وكأن هذا الغاب مدينة وحده انسقت لتكون حديقة باريس وملجأ أهلها من كل نصب ، ومراح شبابها كلما عزهم المراح . وأهل باريس يجدون فيه من الحرية ومن ألوان المتاع ما فى الحياة الغربية مما يزيدنا للحياة حباً وبها إعجاباً .

دهشت زوجى ونحن بمارسيليا لمرأى ذلك الشاب وتلك الفتاة يتبادلان قبلة الوداع ساعة افتراقهما . أما اليوم فلم يبق لها أن تدهش لهذا الشباب المرح فى زوارقه فوق سطح البحيرات ، أوحين استلقائه على الأعشاب المخضرة بين أشجار الغاب ، أوأثناء مسيرته تائهاً فى أحلامه يتهادى لغير وجهة يعرفها ، وهو فى هذه الصور كلها لا يدور بخاطره ما يدور بخاطر الشرقى أن يتوارى من المحيطين به ممن تخطوا الشباب فجاءوا بأطفالهم يستمتعون وإياهم بهذا الجمال ، ويرون أولئك الشبان فى مرح الهوى . وأولئك الأغنياء ممتطين خيولهم أوتسرع بهم سياراتهم ، ومرح الهوى فى الحالين لهم رفيق ، فيرون فى أصائل الخيل وفى فخامة السيارات صوراً أخرى من الجمال تزيد الغاب إبداعاً وإن زجت به فى غمار حياة المدينة وجعلت الكثيرين يلتمسون فى ضاحية أكثر عن باريس نأياً وسيلة للتخلص من جو المدينة ومن مشاغلها .

وضواحى باريس من هذا القبيل كثيرة لا يعنيك اختيار إحداها كلما حدثتك نفسك بالخلوة إليها والاستمتاع بجمال جوها وغابها . ذهبنا منها الى فرساى وسان كلو وفنتنبلو وأنجان وسان جرمان وغيرها وغيرها ، ومتعنا فى قصر فرساى بآثار لويس الرابع عشر ملك العصر العظيم فى تاريخ فرنسا ، وبحديقة هذا القصر كم شهدت من غرام رجال القصر وسيداته ، ثم أصبحت اليوم كما أصبحت غرف القصر متاع الجمهور الفرنسى بل متاع أهل العالم كله ، خاضعة بذلك لما تطورت إليه أفكار العالم حينما نقلت مصدر السلطة من الملك الذى كان يعد نفسه خليفة الله على الأرض إلى الأمة التى تنصب الملوك وتنصب رؤساء الجمهوريات وتملك الأمر طرًّا . وإلى هذا المصير الذى خضع له قصر فرساى خضع قصر فونتنبلو ، وإن بقى محتفظاً من آثار نابليون بأكثر مما احتفظ به قصر فرساى من آثار لويس . فأما سان كلو وسفر وأنجان وغيرها من الضواحى فليس لها ما لفرساى وفونتنبلو من بهاء ؛ إذ لم يكن لما بها من قصور أثر فى التاريخ له من العظمة ما لنابليون وما للويس الرابع عشر . لكن فى هذه الضواحى جميعاً متعة للنفس وسكينة للفؤاد برواء بهجتها ولين خضرتها ورقة هوائها وتميز مائها وما فيها من أسباب المسرة والنعيم . فإذا أنت قضيت بها نهارك وجاء عليها الليل ألفيت بها من مظاهر مدينة النور شيئاً غير قليل ، وآنست فى

بساتينها وفى المطاعم والمقاهى المنثورة بين غاباتها أنواراً تعبث بحجاب الليل وتدعوك إلى متاع به فيها يعوضك عن متاعك بليل باريس ، وإن على صورة ريفية إلا يكن لها ما لليل باريس من بهاء ، فلها ما لليل الريف من بهجة ورواء .

وقضينا بباريس ثلاثة أسابيع تغيرت أثناءها صورة الحياة أمام زوجى . لكنها بعد هذه الأسابيع الثلاثة بدأت تألف حياة باريس ، وبدأت تعاودها الذكرى فيعاودها من الألم ما نسيت أول ما غمرتها هاته الحياة واستدعت كل انتباهها . وأشهد أنها جاهدت لتتغلب على أساها ، ولتنسى فى الحياة نفسها ، لكنها كانت ترى فى الوقت بعد الوقت ما يهيج هذا الأسى حين ترى أماً تفيض أمومتها على طفلها حناناً وحباً ، وحين ترى الأطفال يرتعون فى الحدائق وبين أشجار الغابات ، فتهيج أمومتها الجريحة من أساها ما تجاهد بعزم صادق أن تغالبه . وكثيراً ما شعرت بهذا الجلاد النفسانى ، فجعلت كل همى أن أصرفها عنه إلى جديد ، أو أن أمحو من نفسها اليأس ولو بوهم من رجاء . وكنت أنجح أحياناً ثم تغلب الغريزة الإنسانية مجهودى ، وتبعث إلى ما خلفت باريس من صفو الجو أمام ناظرها سحابة تسيل من عبرتها ما كان قد هدأ . وزاد فى الأمر أنّانى خلال هذه الأسابيع الثلاثة التقينا بمصريين ومصريات ممن نعرف ، وتعرفنا إلى طائفة من المقيمين بباريس لم نكن من قبل نعرف . وشعرت هى بما لمبالغة هؤلاء وأولئك فى حسن معاملتها من معنى الإحساس معها وتقدير ألمها ، فازدادت ألماً . عند ذلك فكرت فى ضرورة الانغماس فى بيئة جديدة تختلف عن بيئة باريس ، ويكون بينهما ما بين البيئة الفرنسية والبيئة المصرية من بون . ولم أكن أعرف ألمانيا لأختار برلين ، فآثرت أن نذهب إلى لندن ، وأن ننتقل إلى البيئة الإنجليزية لعلنا نرى فيها جديداً يشغل وينسى . وأعددنا للسفر متاعنا فى الثانى عشر من أغسطس معتزمين أن نقضى بالعاصمة الإنجليزية أسبوعاً نعود بعده إلى القارة وكان هواى أن نعود إلى بروكسل . ولم يدر بخاطرى ساعة غادر بنا القطار محطة الشمال من محطات باريس أنه سيعود بنا بعد أسبوعين إلى هذه المحطة ، وأن انتقالنا من بيئة باريس إلى لندن سيكون أكبر أثره أن يزيد زوجى لباريس حباً ، وعلى العود إليها حرصاً .

فى لندن

تقطع السفينة ما بين مصر والقارة الأوربية فى أربعة أيام ، أى مائة ساعة . وهى تقطع ما بين القارة وإنجلترا متخطية من كاليه إلى دوفر فى ساعة واحدة . مع هذا يشعر الإنسان بتفاوت بين إنجلترا والقارة أكثر مما يشعر به بين مصر وأوربا ، حتى ليخيل إليه أن مضيق المانش يفصل بين عالمين مختلفين . ولعل هذا الشعور يكون على أشده حين يجتاز الإنسان من مصر إلى إيطاليا أو إلى فرنسا ثم يجتاز من فرنسا إلى إنجلترا ، فأما الذين يقصدون إلى البلاد الإنجليزية من ألمانيا فلا يبلغ منهم الشعور بالتفاوت كل هذا المبلغ ، ويجدون وجوهاً من الشبه بين الأمتين لا شيء منها بين إنجلترا والأمم المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، ذلك بأن بحر الروم هذا كان مستقر حضارات قديمة منذ ألوف السنين ومذ كانت إنجلترا وألمانيا وبلاد الشمال الأوربى كله ما تزال تعصف بها ريح الوحشية والتأخر ، وما تزال بعيدة عن أن تنال من الحضارة أى حظ أو تشاطر فيها بنصيب . وقد جمعت هذه الحضارات ، التى يطلق الأوربيون عليها افتياتاً اسم الحضارة اللاتينية ، بين مصر واليونان وروما والبلاد التى جاورتها وخضعت لها وأفادت منها . وهذه الجامعة ما تزال إلى يومنا ، وإخالها لن تزال فى المستقبل ، مبعثاً لأوجه شبه شتى بين البلاد المحيطة بالبحر المتوسط . وهذه الجامعة هى التى تجعلك تشعر من التفاوت بين إنجلترا والقارة بأكثر مما تشعر به بين مصر وأوربا .

وأنت ترى هذا التفاوت فى كل شيء ، فى الجو وفى البيئة الطبيعية وفى العمارة وفى صور الناس وطبائعهم وعاداتهم . وكم قيل إن الحرب الكبرى قربت بين إنجلترا والعالم ، وأزالت ما كان فى خلق الإنجليزى وطبعه من انقباض واعتزاز . وقد يكون حقاً أن بين الإنجليز اليوم وما قبل الحرب فارق فى ذلك محسوس لكن الإنجليزى لا يزال هو الإنجليزى ، إنجلترا لا تزال إنجلترا فأنت تشعر لأول ما تتخطى دوفر ويتحدث إليك رجال الجمارك فيها أن للحياة هنا نظاماً غير الذى رأيت فى فرنسا وغير ما يمكن أن يجول بالخاطر عن نظام مصر . رجل الجمرك يحدثك فى سكينة يسألك عن سبب زيارتك إنجلترا وعن متاعك وما قد يكون فيه مما يستحق دفع الجمرك عليه . فإذا آنس الثقة بك من حديثك ونظراتك وفيما قد يفيده من جواز سفرك لم يثقل فى شيء عليك وتركك تجتاز إلى القطار أشد ما تكون طمأنينة

له وثقة أنت أيضاً به . وأنت فى القطار لا يسألك أحد عن تذكرة سفرك ولا عن أى شيء من أمرك . ويجتاز القطار بك الطريق من دوفر إلى لندن بين مروج باسمة الخضرة يزيد السحاب الذى يعترض جو إنجلترا فى أحيان كثيرة خضرتها ليناً . فإذا وقف القطار فى محطة فيكتوريا وانطلق بك الأوتموبيل فى شوارع لندن ، ألفيت حياة جديدة ونظاماً جديداً وإدراكاً لمعنى المدينة وحياة المدينة غير ما خلفت وراءك فى باريس . وأول ما يلفت النظر من ذلك سير العربات إلى يسار الطريق ، وهى فى غير إنجلترا تسير إلى يمينه . ويلفت النظر كذلك أن رجال البوليس كلهم طوال أقوياء يقظون تلمح على وجوههم سمو قدرهم لواجبهم ، وترى فيهم حقيقة ما يردده الإنجليز من أن الطريق ملك البوليس هو الذى يحمى نظامه وينفذ القانون فيه . ثم إن عمارات لندن ليست هذه المبانى الشاهقة التى ترى فى باريس والتى تنتظم شوارع بأكملها ، بل هى أغلب أمرها دور مكونة من ثلاث طبقات أو أربع طبقات ولا يزيد على ذلك إلا بعض العمارات فى أحياء التجارة الكثيرة الحركة والنشاط . وخلال هذه الشوارع والطرق تمتد حدائق فسيحة متصلة تقوم مقام الرئة من قلب لندن وتزيد فى مساحتها أضعافاً مضاعفة على التويلرى واللكسمبور وبارك منسو وغيرها من حدائق باريس ، وتخترقها الطرق تجرى فيها العجلات على نحو ما ترى فى غاب بولونيا . ثم إنك ترى التجارة محصورة فى أنحاء معينة ، على حين ترى أحياء فسيحة كلها منازل للسكنى تتخللها حدائق صغيرة تنفس عنها هى أيضاً . وفى أحياء التجارة لا تجد هذه المقاهى والمطاعم منظومة موائدها ومقاعدها على رصيف الشارع ، حتى لتحسب أنك غير واجد فى أنحاء العاصمة الإنجليزية كلها مكاناً تستريح إليه إذا أضناك السير وشق عليك طول الطريق . لكنك لا تلبث متى عرفت من حياة لندن بعض الشيء أن ترى فى أماكن الشاى الكثيرة المنثورة فى كل مكان ، والتى لا تتبدى على الطريق أكثر مما يتبدى أى حانوت آخر ، مواضع لراحتك ، ثم ما تلبث أن ترى فى عدد كثير من أماكن الشاى هذه من أسباب الترف ، وجمال نغم الموسيقى ، ومن أدوار الرقص ، ما لا تذكر له فى باريس مثلا . وفى أبهاء الفنادق الكثيرة الكبيرة مأوى للراحة والترف قلَّ فى كبريات فنادق باريس نظيره . فإذا طال مقامك بالعاصمة الإنجليزية وازددت بحياتها اتصالاً ألفيت فيها من دواعى النعيم غاية ما يصل إليه الترف ، ثم هو ترف غير متكلف ولا مشوب بتقليد ؛ لأنه ترف إنجليزى صميم . على أن أندية الليل التى يجتمع هذا الترف فيها هى أكثر الأمر فى طبقات تحت الأرض تشعرك بما فى غريزة الإنجليزى من حرص على أن يبدو أمام الناس فى مظهر الجد والرهبة ، فإذا خلا إلى نفسه استغرق فى كل أسباب

المتاع والنعمة لا يحول حائل بينه وبين نيل كل ما يستطيعه منهما .

وأحسب أن الجد والرهبة والمتاع والنعمة كلها طبيعية فى النفس الإنجليزية ، وكلها ترجع إلى ما أصبح بعض غرائز الخلق الإنجليزى من الاعتزاز بالنفس والاعتماد عليها . فالإنجليزى لا يرى فى الحياة رأى الفرنسى ، ولا يجعل الادخار أكبر وسائله للاحتياط للمستقبل ، بل يرى الإقدام والصبر والسعى المتواصل أكفل الأسباب التى تهيئ النصر فى الحياة . لذلك تعيش إنجلترا معتمدة فى عزلتها البديعة على قوة اتصالها بالعالم كله اتصالاً يكفل لها ما هى فيه من نعمة . ولو انقطع هذا الاتصال وانقطعت واردات العالم شهراً واحداً لطحنتها المجاعة . أما فرنسا وأكثر الأمم اللاتينية فحياتها وقوتها فى الادخار ، وفى الخوف المستمر من المستقبل والاحتياط له . وهذا الخوف هو ما يجعلك ترى حياة الفرنسى فى بيته حياة شح وإقتار وانكماش أمام شبح الفقر .

وهذا الاعتماد على النفس والاتصال بالعالم هو الذى يجعل حياة الإنجليزى عزوة مستمرة للحياة وحرصاً على استنفاد ما بها من صنوف المتاع . قص علىّ صديق سافر إلى برقة أثناء الحرب الإيطالية التركية سنة ١٩١١ ومر بالسلوم ، أن الحامية المعسكرة بها كانت فى قيادة مصرى ، فلم يكن بها غير الخيام والرمال . فلما أقام ببرقة الشهور التى استغرقتها الحرب ثم عاد منها فى طريقه إلى مصر ، ألفى قيادة حامية السلوم انتقلت لإنجليزى ، وألفى خيمة القائد تحيط بها حديقة جميلة فيها حشائش خضر وأزهار ذات بهجة ، ووجد فى ضيافة هذا الإنجليزى المنقطع بالصحراء كل ما يطمع الإنسان فى المدينة فيه من أنواع المتاع . وما رأيت أنا من حياة الإنجليزى بالسودان يؤكد هذا الذى رواه صديقى . فإذا كانت هذه حياة الإنجليزى خارج بلاده ، وكان هذا مبلغ حرصه على المتاع بالحياة ، فليس عجباً أن تكون إنجلترا المظهر الأقوى لهذا الحرص ، ولظهور الخلق الإنجليزى بكل ما فيه من اعتداد بالنفس واعتماد عليها .

والخلاف بين الخلق الإنجليزى والخلق الفرنسى يرجع فى رأيى إلى أطوار التاريخ فى الأمتين أكثر مما يرجع إلى عزلة الجزر البريطانية وإلى قسوة الطبيعة عليها وعدم برها بها . فقد أرادت أقدار التاريخ ، ولعل الطبيعة البريطانية بعضها ، أن يقوم النضال بين سلطة الملك وسلطة الأمة فى إنجلترا منذ القرن السادس عشر ، وأن تنتصر سلطة الأمة انتصاراً باهراً . وبرغم ما حدث بعد ذلك من استبداد الزعماء والقادة بالأمة الإنجليزية ما استبد نابليون بفرنسا ، فإن الروح القومية بالمعنى الديمقراطى شقت طريقها فى إنجلترا فى حين

كانت سلطة الفرد ما تزال كل شيء على القارة . والروح القومية تسمو بنفس الفرد وتجعله يسعى إلى أسمى ما تقصد إليه الحضارة من غاياتها : إلى حرية الفرد وتضامن الجماعة . والحرص على حريته ، فحرية ذويه ، فحرية إنجلترا هو الذى قوى فى الخلق الإنجليزى ما قدمنا من صفات ، وهو الذى أدى به إلى أن يجعل لكلمة الدار "Home" معنى لا مثيل له فى غير إنجلترا . والواقع أنه حيثما كان التسلط لفرد على الجماعة ، وحيثما كان حكم المستبد هو القاعدة التى يؤمن الناس بها نظاماً لاجتماعهم ، سواء أكان المستبد مصلحاً أم مفسداً ، فإن هذه المعانى الخلقية التى نمت فى النفس الإنجليزية منذ النضال الأول بين سلطة الملك ظلت دفينة بل معدومة فى النفوس التى كانت تؤمن بأن لا وجود لها إلا بمقدار ما يريد المستبد أن يكون وجودها . ولذلك كانت حياة كل فرد وحريته وماله فى هذه البلاد معلقة بين شفتى الحاكم ، تكفى كلمة لسعادة رجل ، وتكفى كلمة أخرى لشقائه أو للقضاء على حياته . وفى ظل نظام كهذا تنمو أنانية الأفراد غاية النمو ، فلا يفكر أحدهم فى غير نفسه ، وقلّ منهم من يفكر فى خير الغير أو يهب حياته لمصلحة الجماعة وعلى غير كره منه . فأما حيث تتحقق الحرية المدنية ، ويصبح الحكم عملا اجتماعياً كغيره من الأعمال الاجتماعية ، فلا يبقى للحاكم على غيره أى حق ، وحيث تصبح علاقات الناس مقررة بالقوانين بما يطمئن كل من معه إلى أن ماله وعمله وحياته بمأمن من كل اعتداء – ما لم يعتد هو على غيره – فهنالك يتأصل بين الناس نظام تقسيم العمل والتضامن فيه ، ويهون على الفرد أن ينزل للجماعة مختاراً عما فاض عنه من ثمراته . ولذلك تراك حيث وجدت الحضارة أشد تأصلا رأيت الناس أشد للحرية تقديساً وللتضامن الاجتماعى سعياً وعملا . هذا ما ترى مظاهره فى إنجلترا واضحة قوية بما ترى من قيام الحرية الفردية بالنفوس قيام الغريزة ، ومن تقديسها ، حتى يعتبر أى مساس بها جريمة دونها أية جريمة ، وبما ترى من التضامن الاجتماعى الذى يجعل أغلب الأعمال ذات المنفعة العامة ، من مثل الجامعات والمستشفيات مستقلة بذاتها قائمة على تبرعات الأفراد والهيئات ، غير متصلة بالحكومة ولا خاضعة فى قليل أو كثير لسلطانها . قصّ علينا صديق مصرى أثناء مقامنا بلندن أن فتاة مصرية كانت تتعلم فى أحد المستشفيات بها ، وأنها كلفت جمع الإعانات من الجمهور لفائدة المستشفى ، وما كان أعظم دهشتها حين مرت ببائع صحف فأعطاها جنيهاً ، وبجزار فأعطاها خمسة جنيهات لهذا المستشفى !

قد تدهشك ثقة بائع الصحف والجزار بالفتاة المصرية ودفعهم المال لها لمجرد إبرازها تذكرة شخصيتها ، بل لقد تدهش هذه الثقة فى فرنسا وفى بلاد كثيرة ، لكنها مظهر الحياة فى إنجلترا . فالإنجليزى يثق بنفسه ويثق بغيره . ذلك بأنه تاجر ، وبان الثقة فى التجارة أساس النجاح . فأما من خان هذه الثقة فله الويل أكبر الويل من القضاء ن

ناحية ، ومن ازدراء الجماعة الإنجليزية إياه من الناحية الأخرى ، ازدراء لا يستطيع معه أن يعيش فى إنجلترا كلها . وأستطيع أن أقص عليك من مظاهر هذه الثقة وما يقابلها من أمانة الشيء الكثير مما رأيت . فكثيراً ما كنا نأخذ بضاعة من متجر ثم لا تعجبنا بعد يوم أو أيام ، فنردها فيردون إلينا ثمنها من غير أن يفتحوا صندوقها . وكثيراً ما نسينا ونسي غيرنا من معارفنا محافظ نقودهم فى غرف الفندق الذى يقيمون به ، ثم عادوا فوجدوها حيث كانت لم تمسسها يد وإن كانت الغرفة كلها قد نظفت وتغير فرشها . روى لى صديق أنه ذهب يوماً ، قبيل سفره من لندن عائداً إلى مصر ، ليشترى هو وزوجه أشياء . فلما عادا إلى مسكنهما تفقد حافظة نقوده فلم يجدها ، وكان بها كل ما بقى له من نقد ! فتذاكر هو وزوجه أين دفعا آخر دفعة ، فادكرا مخزناً من المخازن الكبيرة والفتاة التى باعتهما فيه . وفى الصباح ذهبا إلى ذلك المخزن ، فلما رأتهما الفتاة عن بعد أقبلت عليهما فى ابتسام قائلة : إن لدىَّ شيئاً لكما . وذهبت بهما إلى درجها وأخرجت منه المحفظة . وعبثاً حاول صديقى أن يدفع لها شيئاً ؛ إذ رفضت أن تقتضى ثمناً لأمانتها ! !

هذه هى البيئة الإنجليزية التى نزلنا فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٦ ولنقف منها على ما ذكرت . قضينا بالعاصمة الإنجليزية سبعة عشر يوماً كان إخواننا المصريون المقيمون بلندن دليلنا إليها وسلوانا فيها . وما كنت لأدعى معرفتها ولم أقم بها أكثر من شهرين ، منها ستة أسابيع فى صيف ١٩١٠ وأسبوعان فى ربيع ١٩١٢ . لذلك وقفت معرفتى إياها عندما يعرف السائح من متاحف بلد من البلاد وآثارها الظاهرة وبعض الشيء عن مسارحها . وما كنا لنعنى بالمسارح وقد فتنتنا باريس عن مسارح العالم كله . فزرت وزوجى برج لندن حيث انبهر ناظرها بجواهر التاج البديعة وبماسة (كوهى نور) المنقطعة النظير فى حجمها وصفائها . وحاولت أن أتسلق البرج على نحو ما صنعت فى سنة ١٩١٠ ، فصدت عن ذلك نفسى أن لم يبق لديها من تطلع الشباب ما تستهين فى سبيله بالجهد والمشقة . وزرنا المتحف البريطانى وطفنا بأبهائه وصالاته المختلفة وقفنا منها عند الصالات المصرية القديمة ، ثم هبطنا إلى صالة التماثيل فوقفت أمام تمثال إيزيس الحبيسة فى زجاجها . ما أعظم ما أخذنى من البهر أمام هذا التمثال يوم وقفت أشاهده للمرة الأولى سنة ١٩١٠ . أما اليوم وقد رأيت الكثير من التماثيل المصرية فقد سلكته فى عدادها وإن بقى فى النفس من ذكرى بهرها ما يجعل له فيها إعزازاً ومحبة . وزرنا (الناشونال جالرى) ووقفنا أمام صورة لادى هملتن . وجبنا غير ذلك من أنحاء المدينة وروّينا النظر بآثارها . ثم زرنا من أماكن الشاى ما كان لنا متعة بموسيقاه

ومراقصه . على أن إخوانى المصريين ، ومن بينهم أصدقائى فى السفارة وفى القنصلية المصرية ، أغنونى كما قدمت عن أن أجعل من المتاحف والآثار كلها متاعى ، وجعلوا من ضواحى لندن والريف الإنجليزى مواضع نزهتنا ، حتى لقد خرجنا إلى هذا الريف أكثر من اثنتى عشرة مرة فى الأيام السبعة عشر التى أقمناها بينهم . والحق أن هذه الضواحى وهذا الريف الإنجليزى البديع وما يجده الإنسان فى هامبتن كورت وفى قصر وندسور وفى غيرهما من الأماكن الفخيمة من الآثار مما يصل بك إلى فرط البهر بسحر جماله وبارع فتنته .

بعد يومين من مقامنا دعانا صديق إلى نزهة على النهر ، فركبنا السيارات العامة (الأوتوبيس – أو البس على اختزال الإنجليز) إلى رتشمند إحدى الضواحى القريبة من لنـدن والمتصلة بها بالقطار والمترو أو « تحت الأرض » أو « الأنبـوبة » (فى تعبير الإنجليز ، لأن النفق الـذى تجرى فيه أسطوانى) وبالبس وبكل أسباب المواصلات . ورتشمند ضاحية جميلة هى طليعة الريف الإنجليزى البديع . وإذا قلت عن الريف الإنجليزى إنه بديع فأنت لم تقل فى الحقيقة شيئاً . فالريف الإنجليزى ، أو على الأقل ما رأيت منه ، حديقة متصلة تجرى خلالها الطرق العامة رصفت كلها بالأسفلت رصفاً يجعلها تصل ما بين إنجلترا وإسكتلندا بحيث يقطعها المسافر فى الأتومبيل وهو ناعم بسفره مستريح أشد الراحة له . ورتشمند ليست بعد من ريف إنجلترا بل هى بساتين تصعد من شاطئ النهر إلى مرتفع عظيم يقع عليه البصر ، فيبعث إلى النفس راحة وطمأنينة وإلى القلب سروراً وسعادة بفتنة هذا الجمال . وبين هذه البساتين نثرت مبان قليلة ، بعضها فنادق وبعضها منازل صغيرة على طراز المنازل الإنجليزية المبنية بالآجر تكتنفها من أمامها ومن خلفها حدائق تكاد أزهارها تكسو واجهة البيت جميعاً فتحيله كله زهرة ضاحكة . وجاورنا النهر وسرنا على شاطئه . فرأينا مالا نظير له فى غير إنجلترا ، زوارق يخطئها العد أستقلها شبان وشيوخ وكلهم يجدفون فى نشاط ، وكلهم على الرياضة البدنية إقبال أى إقبال . وركبنا زورقاً بخارياً أخبرنا مضيفنا أنه يسير وغايته هامبتون كورت ، فما كدنا نتخطى رتشمند حتى تبدى الريف الإنجليزى على شاطئ النهر فى كمال روعته . ومن آن لآخر نمر ببعض الزوارق بها كل ما يجب لأدوات الشاى ، وذكر صاحبنا أن بها كذلك طعاماً يكفى أصحابه آخر الأسبوع ، أى من ظهر السبت إلى صبح الاثنين ، يهجرون أثناءه العاصمة إلى صفو هذا الجو الجميل ، مبتعدين بذلك عن ضجة المدينة وعما يفسد جوها حتى يضيق به الصدر . هذه بعض مميزات الخلق الإنجليزى المولع بالرياضة . على أن للإنجليز بالغ العذر لما يدعو ريفهم الجميل

النفس له ، ونهر التيمس نفسه قد زينته الصناعة خير زينة ، وقامت على شاطئيه دور تحف بها الحدائق تزيد زينته بهجة وابتساماً . ثم إنك حيث نزلت من هذا الريف وجدت أماكن لراحتك ولتناول طعامك وشايك ، تحسبها أول الأمر غير قادرة من ذلك على كثير ، ثم ما تكاد تدخل إليها حتى يشتملك جوها بكل ما يبعث الطمأنينة إلى نفسك . نزلنا مع صديقنا عند إحدى بوابات النهر الحاجزة مياهه تنظيماً للملاحة فيه ، وكانت ساعة الشاى ، فملنا إلى دار مؤلفة من غرفتين هى دار خفير البوابات ، فإذا به قد وضع فى رحبة من الأرض أمامها بضع موائد للذين يتناولون الشاى ، وإذا زوجه وابنته تقومان بخدمة من ينزلون عندهم لهذه الغاية ، وتقومان لذلك بتحضير كل ما يلزم من فطائر وخبز وزبدة وكعك ، وتقدمان ذلك نظيفاً لطيفاً تشتهيه النفس ويأخذ الإنسان منه ما يشاء راضياً مغتبطاً ببساطته وإتقانه ، سعيداً بالهواء النقى وبمنظر النهر وبجد الفتاة إذ تؤدى واجب الخدمة فى رزانة ووقار كأنها تؤدى واجباً مقدساً . وأراد صاحبنا التبسط معها ، فأجابت بكلمة وانفلتت لترى غيرنا ممن هم فى حاجة إلى خدمتها. وضحكنا لهذا المظهر من الجد الذى إن اتفق وبساطة عيش الريف ، فهو يتنافر والشباب ، وهو أشد مع الأنوثة تنافراً . وأدينا عن شاينا هذا دريهمات قمنا بعدها إلى النهر وإلى الزورق البخارى الذى أقلنا إلى رتشمند ، ونحن – باليوم كله وبجمال الريف الإنجليزى وبهجة مناظره وبروعة الحدائق المنثورة هنا وهناك ، مبعثرة خلال خضرتها دور الريف الصغيرة الرشيقة وبكل ما أحاط بنا وأمتع نظرنا – نشوة ومرح لا سبيل إلى مثلهما فى جو المدينة ، وإن عوض جو المدينة الناس من أسباب المرح والنشوة ما قد يهيج النفس أضعاف ما تهيجها نشوة الريف ، ولكن على حساب الصحة وعلى حساب الأعصاب .

وسارت السفينة بنا بعد ذلك بأيام بين خضرة هذا الريف البهيج حتى بلغنا هامبتون كورت مقر أحد القصور الإنجليزية الملكية . والناس أشد بحدائق القصر ولعاً . فلئن كانت طنافس القصر وبديع أثاثه وما به من صور زيتية ينال الكثير منها الإعجاب العظيم ، فإن هذه الحدائق الفسيحة الأرجاء والبحيرات الصغيرة التى تتخللها والأزهار الباسمة الألوان وما يشتمل ذلك من جو صفو رقيق ، كل ذلك يقتضى الناس أضعاف ما يقتضيهم القصر من الزمن الذى ينفقونه فى الضاحية . ثم إن أكثر الناس يكتفون برؤية هذه الآثار الفنية مرة ، ولكنهم مع ذلك يترددون على الحدائق وحشائشها وبحيراتها وأزهارها كلما دفعهم ملال المدينة إلى الخروج إليها لتنسم الهواء الصافى الصحيح . وفى هذه الحدائق تبسم الثغور وتفيض النظرات بمعانى المرح والغبطة ، وتعود الحياة نعيماً ومسرة يغريان بالحب وبالمودة

وبكل العواطف الرقيقة الجميلة التى تحبب إلينا الحياة ؛ إذ يهش لنا ما فيها ويجيبنا إلى ابتسامتنا لها بابتسامة كلها حنان وحب ومودة .

أما قصر وندسور ، كما يسميه الإنجليز "Windsor Castle" فلا يزال منزلاً لضيوفهم من الملوك ورؤساء الجمهوريات . وهو حصن حقًّا فى ظاهره . فأنت ما تلبث حين تدخل إلى فنائه أن ترى أمامك جدراناً من الحجر لم تطلس ولم تنقش ولا تكاد ترى فيها نافذة أو فجوة . وتستدير إلى بابه فيزيدك الطريق إليه اقتناعاً بأنك أمام حصن من طراز برج لندن . لكنك متى تخطيت الباب إلى الدرج فواجهتك غرف القصر وأبهاؤه ألفيت نفسك فى قصر منيف ، بديع النقوش ، ثمين الآثار ، ملكى الغرف ، بما فيها من صور زيتية ونقوش جدرانية وصور فى السقوف وآنية فى غرف المائدة وسرر فى غرف النوم وما إلى ذلك من مظاهر الجلال والأبهة مما ينسيك هامبتون كورت ، بل مما ينسيك فونتنبلو . على أنك ما تكاد تذر القصر حتى يعاودك الشعور بأنك أمام حصن مهيب ليس حوله ما حول هامبتون كورت من حدائق غناء . ثم يصل ما بينه وبين قرية وندسور طريق قصير يقرِّب ما بين مقر الملك ومراح الشعب بما يرفع من معنى الديمقراطية إلى المكان الصحيح ، وما يحقق الوحدة القومية المستندة إلى سيادة الأمة وإلى رمز هذه السيادة .

كثيرة ضواحى لندن وإن لم أعرف بها قصوراً غير قصرى وندسور وهامبتن كورت . وأكثر الضواحى يبذهما روعة وجمالا . ذهبنا إلى بريتن وإلى إيسبون الواقعتين على شاطئ المانش . وذهبنا إلى غيرهما من الضواحى يقع بعضها على التيمس والبعض خلال الريف غير متصل بنهر ولا ببحر ، فكنا فى جولاتنا جميعاً نستمتع بنضرة وبهاء وصفو جو ، وننعم خلال ذلك بأماكن الشاى الريفية الجميلة المنثورة خلال إنجلترا مثابة للسكينة والنعمة ، على أنه لم يأخذ شيء بنظرنا فى هذه الضواحى جميعاً ما أخذ منظر من أروع مظاهر التضحية وأبدعها ؛ ذلك حين عرجنا أثناء تجوالنا أنحاء الجنوب الإنجليزى مما حول لندن على قرية المسنين ، أو قرية ويتلى ، كما يسمونها هناك باسم المحسن الذى أنشأها . هذه القرية الواقعة بين نضارة ريف إنجلترا يهز القلب مرآها كما تأخذ باللب فكرة الإحسان التى دفعت مستر ويتلى إلى إنشائها . لها بوابة حديدية فخمة ، تخطيناها إلى غابة صغيرة تتخلل أشجارها الباسقة أزهار جميلة ، ويمر الطريق من خلالها نظيفاً منتظماً حسن الرصف يصل بين القرية وبينها . والقرية بيوت مشيدة كلها على طراز واحد غاية فى البساطة ، غاية فى الحسن ، بنيت من الآجر ، وفى الطابق الأسفل منها غرفتان أو ثلاث غرف ، وفى الطابق الأعلى غرفة أو غرفتان . لكن

البناء على رشاقته وظرفه ليس هو الذى يسبغ على القرية جمالها . فمن حول كل من هذه البيوت حديقة ظريفة غرست على النظام الإنجليزى . فيها الأزهار مختلفاً ألوانها . وفيها الأشجار الزاهية الخضرة ما لم يذبل خضرتها قر الشتاء . وخلال الأزهار والأشجار طرق ضيقة تفصل الجازون الذى يكسو الأرض بخضرته بعضه عن بعض ، وتجعل الحديقة تبدو كأنها خريطة مرسومة على ذوق البستانى الفنان الذى يقوم على العناية بها . وفى جانب القرية كنيسة رشيقة هى أيضاً يحيط بها فضاء يسبغ عليها ما يجب لبيوت العبادة من هيبة . والمنازل والكنيسة ومستشفى القرية وما فيها من سائر صور الحياة منثورة تتخللها الحدائق والطرق ، وتنبسط بينها ساحة واسعة مغروسة كلها إلا طريقاً يمر وسطها ويقوم عند غايته تمثال مستر ويتلى منشئ هذه القرية . والقائم على زراعة الحدائق وتعهدها هم أولئك المسنون الذين بنيت القرية من أجلهم ، كما أنهم هم الذين يعمرون دار العبادة كل يوم فى أوقات العبادة وهم وحدهم الذين يقيمون فى القرية . فلست ترى فيها إلا من جاوز الخمسين على الأقل . وقد ترى فيها من أربى على الثمانين . وما أجمل منظرهم رجالاً ونساء وهم يروحون ويغدون أمام منازلهم يتعهدون الحديقة تارة ويتروضون تارة أخرى ، وهم عن هموم الحياة وآلامها بمعزل بعد أن كالت الحياة لكل منهم نصيبه من هذه الهموم والآلام .

كلا ! بل بقى لهم بعض همِّ الحياة ، ذلك أن مستر ويتلى حين فكر فى بناء قريته للذين يتجاوزون الخمسين وتضيق بهم سبل العيش ، لم يرد أن يتركهم بغير عمل ، ولم يرد أن يخليهم من كل تبعة . وما قيمة الحياة بلا عمل ولا تحمل تبعة ! إنها تصبح إذن حملا ثقيلا وهمًّا دونه كل هم . لذلك اكتفى بأن شيد القرية ليسكنوا فى منازلها وقدَّم لهم الماء والكهرباء والوقود والدفء ، وترك على عاتقهم العمل لكسب القوت . وإذن فعليهم تبعة ولهم عمل . وإذن فلديهم شفاء آلام النفس كلها . وهل غير العمل هذا الشفاء ! وهل ينسى المكلوم القلب والمحزون كلومه وحزنه فى خير من أحضان العمل ! وهل ينسى المسن هموم الماضى وعبء الحاضر وخوف المستقبل فى شىء خير من العمل ! .

لكن التقدم فى السن يصل بالرجل وبالمرأة إلى تمام العجز عن العمل ، ويضطرهما إلى انتظار غاية الحياة وهما ينظران إليها تفر سراعاً ولا يستطيعان إمساكها ولا شغلها . لذلك قرر مستر ويتلى أن يذهب كل من عجز عن العمل إلى المستشفى يقدم له فيه طعامه وشرابه إلى جانب ما كان يقدم له ولسواه من قبل . ويبقى فيه إلى أن ينقل منه إلى المقر الأخير ينتظر فيه الأبدية التى قدم فى سبيلها من أنواع العبادة ما قدم .

هذه قرية ويتلى . وهى مثل من أمثال التضحية بالمال فى سبيل خير الجماعة أدت إليه فكرة غاية فى السمو والنبل . فمن الحق أن يصل الإنسان من عمله أيام المقدرة عليه إلى ما يخفف عنه عبء العمل حين الضعف وعدم استطاعة الإنتاج بما يكفى كل حاجات الحياة . لكن نظام الجماعة الحاضرة لا يكفل هذا الحق ، وقد يكون عسيراً أن يكفله . فعلى من يؤمن به أن يعمل ما استطاع لكفالته : فإن كان هذا المؤمن من الذين أتاحت الحياة لجدهم أو لعملهم أن يثمر ما يفيض عن حاجاتهم فيضاً عظيماً ، فخير ما يعمله ، كفالة لهذا الحق ، أن يقوم بمثل ما قام به مستر ويتلى ، وأن يبنى قرية على طراز قريته .

وأحسب أن الذين يؤمنون بما آمن به مستر ويتلى كثير ، لكن الذين يدفعهم إيمانهم إلى القيام بمثل عمله قلة فى أكثر الأمم وغير موجودين فى البلاد التى لم تتأصل فيها بعد حضارة حرية الفرد وتضامن الجماعة . وقد يكون لهم شىء من العذر حتى فى البلاد المتمدنة لضعف الجماعة فى بعض الظروف عن حماية الفرد مما قد ينزل به من هموم وكوارث .

ولعل مصير مستر ويتلى نفسه ، هذا المصير المحزن العجيب ، مما ينهض حجة للأنانيين . فهذا الرجل المحسن العظيم الذى عمل لإنقاذ مئات ومئات من الذين قضوا حياتهم سعياً وجداً وكادت الحياة تجنى عليهم . هذا الرجل البر بالإنسانية قد مات منتحراً . ولئن بقيت قريته تشهد بإحسانه وبقى تمثاله القائم بين أولئك الذين أنقذهم من براثن البؤس يدل على سمو نفسه ، إن فاجعة انتحاره تدل على أن كثيراً من جوانب الحياة الإسانية ما يزال لغزاً غامضاً عسيراً حله ، وإن الإحسان وإن عظم قد لا يكفى لسعادة الحياة ، كما أن المجد والمال وكل ما ينظر إليه الناس على أنه غاية من الغايات التى يسعون إليها قد تجتمع كلها للرجل ، ثم لا تكفى مع ذلك حتى لطمأنينته إلى الحياة ، فيفر منها جميعاً ويطلب الراحة فى أحضان العدم يصل إليه من طريق الانتحار .

* * *

سبق أن قلت إن أصدقاءنا المصريين فى لندن كان لهم أكبر الفضل فى اتصالنا بكثير من نواحى حياتها وبالريف الإنجليزى البارع الجمال مما يحيط بها . وأشهد أنهم أحاطونا بكل صنوف العناية ، حتى لم يكن يمر يوم لا نرى فيه جماعة منهم كل مقصدهم أن يروحوا عنا ، وأن يعاونونا على نسيان ما شعرت بإخلاصهم فى مشاركتنا فيه من أسانا . وإن أنس لا أنس ما كان لقنصل مصر يومئذ بلندن (صديقى مصطفى الصادق وأسرته الكريمة) من فضل مضاعف . ولن أنسى إلى جانب فضله إخواننا جميعاً ممن أخشى

إن حاولت ذكر أسمائهم أن تخونني الذاكرة فلا يرد اسم أحدهم أو بعضهم ، فيكون عليَّ في ذلك من إثم الجحود ما أرجو أن أبرأ منه . وهذه العناية من جانبهم وما اقترن بها من حفاوة شبابنا وفتياتنا الذين يتعلمون في إنجلترا هي التي جعلتنا نمد زمن بقائنا بالعاصمة الإنجليزية إلى أكثر من الأسبوع الذي اعتزمنا بقاءه بها . وقد كان مستطاعاً أن ننفذ خطتنا ، وأن نذهب إلى بروكسل لنعود منها إلى باريس بعد أن ازدادت زوجي فتنة بها بعد مقامنا بلندن لو أن الأسبوع لم يمتد إلى أسبوعين . بل لقد حجزنا تذاكر العودة إلى باريس في ختام الأسبوع الثاني ، فأصر إخواننا على أن نجيب دعوة دعينا إليها ، فأجلنا سفرنا يومين آخرين . فلما كان الظهر من يوم ٢٩ أغسطس ركبنا القطار لنعود إلى باريس كي نقيم بها يومين اثنين ننظم بعدها رحلتنا إلى الألب وسويسرا . لكن سحر باريس كان أقوى من عزيمتنا ، فاستبقانا بها أسبوعين كاملين .

لندن – باريس – السافوا العليا

غادرنا لندن ظهر ١٢ أغسطس على قطار السهم الذهبي (The Golden Arrow) فجاء مجلسنا فى ديوان به أربعة مقاعد جلس إلى أحدها شيخ إنجليزى كان غاية فى الرقة والظرف . وقصته هى التى عادت بى إلى الطريق بين لندن وباريس ، ولولاه لبدأت هذا الفصل بما سأذكره عن أسبوعينا بمدينة النور . تحدث إلينا طويلا ، فكان حديثه شهياً يدعو إلى الإقبال عليه كما يستغرق النظر تحديقه إلى الوجه الجميل الساحر . سنه أربع وسبعون سنة على قوله .

رأيناه فوددنا لو كان معنا من أمتعة الشباب بحلته الباسمة ، وتركناه عند دوفر وركبنا المانش ثم التمسناه على ظهر الباخرة ونحن على الاستماع لحديثه الظريف جد حراص . وهو بعد فخور بقوته وصحته ، محب لما فى الحياة من لهو ومسرة . قال : إنى أقيم بباريس أتجر فى الجلود منذ ثلاثين سنة . كنت فيما مضى أسافر إلى لندن ثلاث مرات أو أربع مرات فى السنة ؛ أما الآن فهبوط عملة فرنسا وغلاء الحياة فى إنجلترا جعلنى أزور لندن مرتين وكفى وإذ كنت قد ولدت بها على مقربة من ميدان شيرنج كروس فلى فيها عدد من الأهل غير قليل . لكنى لا أنزل عند أحد منهم أثناء زيارتى إياها ، بل أنزل دائماً بالنادى (Circle) . فلست أريد أن أخضع لرقابة أحد إن أنا تأخرت فى الدخول ليلا ، أو لذ لى أى نوع من أنواع اللهو .

وكان يحدثنا وهو يتناول الطعام ويتناول معه قدحين من الوسكى . ولما سأل الغلام حسابه ودفع له اثنى عشر شلناً قال :

– لو علمت زوجى أنى دفعت فى أكلة واحدة مائة فرنك لغاضبتنى أن لم أشتر لها بهذا المبلغ قبعة تعجبها وأن أنفقته لنفسى . لذلك يحسن أن يخفى الرجل على زوجه ما يدعو لخصومة أو مغاضبة .

وظل يحدثنا فى هذا وفى مثله حتى لم نشعر بالوقت ومره بين لندن ودوفر .

ولم يجد التماسنا إياه على الباخرة شيئاً أن حال اضطراب البحر بيننا وبين كل حديث ، وانتقلنا من كاليه إلى باريس فى ديوان لم يكن فيه من بين شركائنا . فلما كنا بالفندق

شعرنا كأنا عدنا إلى بلدنا وأهلنا ومنزلنا . وخرجنا نلتمس بعض المسارح نقضى الأمسية به ، ففاض هذا الشعور عن أنفسنا ، وأحسسنا أنا لا نستطيع مغادرة هذه المدينة فى الموعد الذى ضربنا ، وكأنا منها مدنف مكبل بسحر فاتنته . وتعاقبت الأيام ، وكانت زوجى قد عرفت من باريس مدة مقامنا الأول ما جعلها تنفرد بالبحث فى مخازنها عما تريد . وأنجتنى معرفتها من قضاء الوقت معها فى مخازن اللوفر والبون مارشيه والسمارتين والفصول الأربعة وغيرها مما لا أطيق عليه صبراً ، كما أتاحت لى أن أذهب إلى باعة الكتب أبحث عن جواب عن سؤال كان ولا يزال حتى اليوم يتردد بخاطرى عما صار إليه الأدب الفرنسى بعد الحرب . فقد كنا أيام مقامنا بالحى اللاتينى إبان طلب العلم نعرف الرءوس المتوجة فى الأدب الفرنسى ، وكنا نذكر أسماء أناتول فرانس وبول بورجيه وجول لمتر وإميل فاجيه وغيرهم ، وكان لمن نعجب به منهم مكان القداسة فى سويداء القلوب .

فمن هم أصحاب تيجان الأدب اليوم ؟ حقاً إن بول بورجيه لا يزال حياً ولا يزال لأدبه ما كان له من سمو المكانة . لكن فرنسا كانت غنية دائماً بهذه الرءوس التى تعد بحق أبهى مظاهر مجدها . فمن هم هؤلاء الذين مهد لهم الخلود صفحة فى كتابه وما يزالون بيننا تهز أقلامهم قلوبنا وعواطفنا وإحساسنا ؟ سألت كثيرين ، فذكروا لى أسماء ربما ألفت أذنى بعضها ولكن قلبى لم يتحرك لواحد منها ما كان يتحرك لأولئك العظماء الذين بقيت أسماؤهم مقترنة بكتبهم فى ذاكرتى وبإعزازهم ومحبتهم فى قلبى . أفيكون هذا لانصراف الحياة بى عما كان شاغل معظم وقتى من مطالعة ؟ أم اهتزت مذاهب الأدب مع ما هزته الحرب الكبرى فلم يثبت بعدُ منها ما يتوج رأس صاحبه ! أم ضخامة ما يقوم به الناشرون من إعلان عن رجال القلم هو الذى ضلل الجمهور فى شأن أقدارهم ؟ لقد سمعت من هذه الإجابات غير قليل . وأعترف بأنى حتى اليوم لا أستطيع الحكم أيها أدنى إلى الحق وأصدق للواقع تصويراً .

فتنتنا مسارح باريس من جديد ، حتى لكنا نقضى أحياناً بعد الظهر ونقضى المساء جميعاً فيها . وما أكثر ما كنا نتحدث عن الموعد الذى نسافر فيه من باريس ، فإذا بنا نرى رواية لها الشهرة يقوم بتمثيلها نوابغ الفن ، فنحجز أماكننا بالمسرح الذى يمثلها قبل الموعد بأيام ، ونرى أنفسنا لا مفر لنا من الانتظار هاته الأيام حتى نشهدها . فلما انقضى الأسبوع ثم انتصف الأسبوع الثانى منذ حضورنا من لندن ، شعرت بأنه يجب أن أستجمع كل عزمى لأقهر كل ما يقوم من تردد بنفسى . وذهبت ضحى يوم إلى شركة

القطارات السويسرية فحجزت تذاكرى إلى إكس لى – بن فشاموني فجنيف فأنترلا كن فلوسرن فميلانو فالبندقية ، وبذلك خطوت الخطوة الأولى فى سبيل النصر . ثم طلبت إلى الشركة أن تحجز لى مقاعدى ليوم ١٢ سبتمبر فخطوت الخطوة الثانية . وإنى لأذكر ما كانت تتبدى باريس فيه بعد هاتين الخطوتين من زينة ، وما كان يظهر على لوحات الإعلان عن مسارحها من إبداعها الشيء الكثير مما خشيت معه أن أعود فأغير موعد السفر . على أنى غالبت كل عوامل التردد ، وبقيت على عزمى برغم ذلك كله .

ولما كانت عشية السفر ذهبت أنا وزوجى نودع غاب بولونيا ونودع باريس . وأرخى الليل سدوله ، وأضاءت أنوار الكهرباء متسللة فيما بين أوراق الشجر من ثغرات ، ومر الوقت مسرعاً كأنه بساعة أخرى ضنين . فطلبنا إلى سائق السيارة أن يسير الهوينى بعض الشيء فى أنحاء الغابة قبل أن ينحدر بنا وسط باريس . وكم من مرة جزنا خلال الغابة فى مثل هذه الساعة ! وكم متع الفؤاد بما فيها من جم المعانى العذبة الساحرة ! لكن هذه الساعة الأخيرة فى الغاب كانت فريدة فى معانيها ، وفى عذوبتها ، وفى سحرها ، فكأنما كنت أرى فى أثناء الشجر كله عيوناً باسمة وثغوراً متلألئة وأصواتاً رخيمة تدعونا ألا نفارق هذه العيون وهذه الأصوات ، وتعدنا أن تكون أبهى جمالا وأعذب مما كانت سحراً . وخرجنا من الغابة إلى الشانزليزيه فكأن لم نره من قبل ، وكأن أمواج النور المترامية من عند قوس النصر إلى ما بعد ميدان الكونكورد لم تكن من قبل وضاءة الضياء مثلها هذه الساعة . وأضاء برج إيفل من قمته إلى أخمصه بما لا عهد لنا من قبل به . وتبدت باريس غير باريس ، ودعانا كل ما فيها ألا نغادرها . ولولا الشعور بأنا مغادروها ولابد عما قريب ، ولولا الأنفة أن تفتننى هذه اللعوب ، لغلبت باريس عزيمتى ، ولطال بنا أسرها الشهى المحبوب .

* * *

غادرنا باريس صباح ١٢ سبتمبر سنة ١٩٢٦ قاصدين السافوا العليا لنمتع النظر بجبال الألب الرفيعة ، وبثلوجها وأشجارها ومنحدرات مياهها ، ولنتمتع بجوّها اللطيف بعد أيام تشكى الناس فيها القيظ الذى لم يألفوه وإن احتفظت غانيات باريس بفرائهن استمتاعاً بزينتها . غادرناها وفى الجو نذر المطر ، وفى نفوس المقيمين بها رجاء أن يذهب المطر بالقيظ وآثاره . وكانت إكس لى – بن ، غاية القطار الذى أقلنا والذى يصلها بعد مسير تسع ساعات . لكن السفر فى هذا الطريق لا يمله مسافر يسير به القطار بين سفوح خضراء وغابات كثيفة ومياه جارية ، ويخترق به الأنفاق ليخرج من كل منها إلى منظر جديد

جميل . وقد زاد هذه الطبيعة البديعة زينة أن ظلت السماء إلى ما بعد الزوال ممسكة ماءها ، وإن بقيت الشمس وراء الحجب . فلما آن للقطار أن يستدير عند أبواب الألب بدأ المطر رذاذاً ، ثم ما لبث أن هتن منه وابل أخذ على النظر السبيل لرؤية القمم التى نمر بها . ووصلنا إكس فى منتصف الساعة الخامسة وقد سمحت السماء بفترة هدنة استطعنا خلالها أن ننتقل إلى مركبة الفندق لتصعد بنا فى شوارع المدينة الصغيرة الجميلة إلى أعلاها . وما كدنا نستقر فى غرفتنا سويعة حتى انهمر المطر من جديد بما أيأسنا من مغادرة صالات الفندق وصالوناته هذه الليلة . فلما كان موعد العشاء ذهبنا إلى غرفة الطعام وأخذنا منها مقاعدنا . وما هى إلا دقائق حتى رأينا منظراً لفتنا واستثار دهشتنا . تلك عجوز نيفت لا شك على التسعين قد جلست فى عربة صغيرة أنيقة ومن ورائها من يدفع بها فى البهو إلى ناحية غرفة الطعام . فلما وصلت إلى باب هذه الغرفة عاونها رجل وامرأة لعلهما من خدم الفندق ، على النزول من العربة وأسنداها لتهبط الدرجتين وسارا بها إلى ناحية مائدتها يتقدمهم شاب فى أغلب الظن أنه حفيدها . وانسحب الرجل والمرأة بعد ما جلست هى بإزاء هذا الحفيد الوارث . ولما انتهيا من تناول الطعام جاء معاوناها وسارا بها إلى أن أجلساها فى البهو تتناول قهوتها وتشنف آذانها بسماع الموسيقى .

كم قاست هذه السيدة من هموم الحياة والامها ؟ ولقد تكون وهى فى شيخوختها هذه قد فجعتها الأقدار بشر الفواجع . وقد يذكرها هذا الحفيد الذى يلازمها بصدع فى قلبها ما ينفك تتفجر جوانبه بلذعات ألم لما يتدثر فى ثوب الماضى ، ولما يخفف الزمن من شدة وقعه . لكنها ما تزال تحيا . وفى الحياة جمال وروعة يعوضان مما ينزل بالناس من غدر القدر . فمن الحكمة أن ننسى فى أحضان هذا الجمال وتلك الروعة أحزاننا وهمومنا ، وأن ننهل منهما بما يطغى على كل ألم ويغرقه .

ولفت منظر هذه السيدة تحمل إلى قاعة الطعام وإلى بهو الموسيقى نظرنا إلى غيرها من العجائز – ما أكثرهن ! وما أرقهن ! وما أشدهن ذوقاً للحياة واستمتاعاً بها ! لا يكاد موعد طعام العشاء يجىء حتى تراهن قد لبسن لباس السهرة يبارين الفتيات البارعات فى اعتدال القوام وارتداء ما يحلو لهن من الأزياء . فإذا كانت ليلة راقصة كنّ أسرع من بناتهن إلى الرقص وأكثر به حبوراً .

وكانت على المائدة المجاورة لمائدتنا عجوز حلوة النظرة بعينيها الزرقاوين ، بيضاء الشعر بياضاً ناصعاً . وإنا لنتناول طعام الغداء يوماً أشرقت شمسه وصفت سماؤه وطاب هواؤه وتعطر بأريج الزهر جوه ، إذا بها تقبل إلى مائدتها فى ثوب أبيض وحذاء أبيض وقبعة

بيضاء قد ظهر من تحتها شعرها الأبيض ، وتبدو بذلك كأنها زهرة بيضاء ذات رواء وبهجة . ولو أنك نظرت إلى قوامها وهندامها وحسن ذوقها فيه لخلتها فتاة حريصة على أن تزيد جمالها جمالاً ببهاء الحلي والثياب .

لفت أولئك العجائز نظرنا ، وكن فى كثير من الأحيان موضع حديثنا أن كانت زوجي وما تزال تأسى لفقد أمها الشابة وابنها الطفل ، ترى فى استنفادهن الحياة وإمعانهن فى المتاع بها مظهراً مؤلماً لظلم الطبيعة وغدر القدر . وكم حاولت أن أصرفها عن هذا ، وأن أرجو لها مثل شيخوختهن ، فتأبى إلا أن تجعل من ذكراها ما يصور لها تفاوت العدالة وتفريقها بين الناس بما يسلبها كل معنى العدالة . وكم رأيتها إثر أحاديثنا فى هذا الشأن وبعد مشهد العجائز مقبلات على الرقص آخذات بأكبر نصيب منه ، شاردة البال سارحة فى تيهاء الخيال بما لم أكن أشك معه فى أنها كانت تقول فيما بينها وبين نفسها :

– ما بال هؤلاء الجدَّات قد خلعن عذار الوقار وتهالكن على أنواع اللهو . هل حسبن أنهن مستعيدات فى أحضانه شرخ الصبا وروعة الشباب ، أم هن يزعمن المقدرة على خداع الحياة .

إنما العيش صحة وشباب فإذا وليا عن المرء ولى

ألا إنه لأولى لأولئك العجائز اللاتى انحدرن إلى خريف العيش أن يترفقن بأنفسهن ، وأن يقضين ما بقى من أيامهن فى سكينة وهدوء . فلن يستطعن ، ولو حاولن ، أن ينعمن بأيامهن وأيام غيرهن . وليحمدن الله الذى مد فى آجالهن على حين تتحطم على صخرات القدر أعمار شباب كانت الحياة أشد حاجة إليهم وإليهن ، وكانوا وكنّ للحياة زينة ومجداً .

أم لعل الذكرى وحدها لم تكن مثار هذه الصورة للمشيب فى نفسها . لعل مثارها ما رسمته الحياة وما ثبتته منذ طفولتها فى نفوسنا صورة للمشيب ، ولمشيب النساء بنوع خاص . فهنّ قد فرغن من الحياة ونصبها والعيش وهمومه . فلم يبق لهن إلا أن يرتجين حسن الختام بالانقطاع لله لعبادته وتقواه . وفى انتظار هذا الختام يقضين بقيتهن فى الحياة راكعات ساجدات قانتات ليغفر الله لهن ما تقدم من ذنبهن وما تأخر . هذه الصورة التى كانت تمثل فى نفسى جلال المشيب وهيبته ما تزال تذكرنى طفولتى ، وتذكرنى شيوخ قريتنا يجتمعون فى المسجد قبيل الفجر لقراءة الورد حتى يحين أداء الفريضة ، فيصلون ثم ينصرفون يسبحون بحمد الله ويقدسونه ، ويقصون على من حولهم قصص الماضين ، حتى تحين فريضة الظهر فيؤدوها فى المسجد جماعة كما يؤدون سائر الفرائض . وما تزال

هذه الصورة تذكرنى كذلك عجائز القرية وهمٌّ كل واحدة منهن أداء فريضة الحج وزيارة النبى صلى الله عليه وسلم والانقطاع بعد ذلك لله بالعبادة . على أن الحياة الغربية تأبى هذه الصورة وتنفر منها وتنكر على العجائز الفراغ من الحياة ونصبها والعيش وهمومه ؛ لأنها لا ترى فى الحياة همًّا أو نصباً إلا يعوض منه ما فى الحياة من رقة وجمال ، وترى أن من الحق لكل إنسان أن ينعم بالعيش إلى آخر لحظاته ، وأن ينظر إلى الموت على أنه عمل من أعمال الحياة هو آخرها ؛ وإنما نكون سعداء إذا استطعنا أن نستمتع بحياة طويلة وموت جميل .

وأفضيت غير مرة بهذه الخواطر إلى زوجى ، وذكرت لها أن الأيام لا تضيق بالشباب عن أن يتمتع بها إذا تمتع بها من تخطوا الشباب . فالأيام رحبة الصدر تقبل على كل من أقبل عليها ، وتدبر عمن قطب لها جبينه ، لا تفرق فى ذلك بين شاب وشيخ ، وبين رجل وامرأة . وهى فى ذلك محسنة عادلة . وإذا كان الشيوخ والعجائز قد تخطوا إلى خريف الحياة ، فللخريف جمال وروعة لا يقلان عن روعة الربيع وجماله . وما دمنا أحياء فللحياة علينا حق الاستمتاع بها ؛ والصادف عنها كالجالس إلى صديق وفىّ ، ثم هو مع وفاء صديقه منصرف عنه إلى التفكير فيما لا يرضاه . بل لعل الشيوخ والعجائز أحق أن يستمتعوا بالحياة من الشبان والغانيات . فهؤلاء ما تزال عليهم للحياة واجبات السعى والعمل ، وما يزال شبابهم لذاته متاعاً لهم يغنيهم عن التماس غيره من أسباب المتاع . أما أولئك فقد أدوا للحياة واجبها ، وقد أصيبوا فى الحياة بألوان من المحن تؤلم ذكراها ، ثم هم قد تحدر شبابهم فى غيب الماضى ؛ فالحياة عبء ثقيل عليهم حمله إذا هم لم يلتمسوا نسيان أثقاله فى المرح والمسرة . والحياة كريمة محسنة لا تأبى المرح على عجوز ولا على شيخ إذا هدته حكمته فطلب من ألوان السرور ما يجمل الهرم ويجعله كالصبا بهاء وروعة : ولعل الإنسان إذا جلس إلى واحد من الذين تريدهم صورة المشيب فى نفوسنا على الانزواء فرآه مقبلا على الحياة محباً لها ، يغتبط بجلسته معه مقدار اغتباطه بجلسته إلى شاب ذكى أو سيدة جميلة ، فى حين هو إذا جلس إلى منزو عن الحياة زاهد فى العيش لم يجد فيه مما يحسبه جلالا وهيبة إلا ما يجده فى الدور المهدمة الخربة التى تطن بأصوات الحشرات الكريهة ، ولا تسمع فيها شدواً مشجياً كالذى تسمعه فى القصور القديمة الآهلة بأسباب الحياة والنعمة .

لم يقف أمر العجائز اللاتى بعثن هذه الصور والتفكيرات إلى نفسينا عند من رأينا فى الفندق . فقد تنفس الصباح بنا فى إكس لى - بن - عن جو صحو جميل زاده انهمار

المطر صدر الليل صحواً وجمالا ، فانحدرنا إلى ميدان المدينة العام حيث نبوع الماء المعدنى يشربه المستشفون ، وحيث تقوم عمارة الحمامات المعدنية ، وحيث كازينو المدينة على مقربة منه ، فألفينا حول العيون من العجائز كثيرات جئن مستشفيات مستمتعات . ولم نقصد نحن إكس للاستشفاء ، وإنما قصدنا إليها أن كانت فاتحة الطريق إلى الألب الفرنسية ومناظرها البديعة وهوائها المحسن الصحيح الذى ينبه الأعصاب وينشطها ويزيد فى الحياة ما يزيدنا حرصاً عليها . لذلك آثرنا أن نطوف المدينة ومجاوراتها ، فركبنا عربة يجرها جواد واحد كى تمشى على مهل يسمح لنا بالتأمل فيما نرى . وتركنا لسائق العربة أن يكون دليلنـــا ، فذهب بنا أول ما ذهب إلى « حلوق سرفوز "Les Gorges de Cervoz" وهى أخدود عميق فى الأرض يحيط بجانبيه صخر أملس رأسى الانحدار تجرى فيه المياه المنحدرة من الجبال وتكسوه أشجار كثيفة . وهبطنا من العربة ودخلنا إليه ، وأخبرنا السائق أنه منتظرنا عند غايته . فلما بلغنا أول الأخدود ألفينا زورقاً صغيراً جداً يتسرب فوق الماء خلال الصخور الرأسية متجهاً صوب الانحدار من النبع حيث يهوى الماء إلى أخدود الحلوق مضطرباً هائجاً ينثر من حوله رشاشاً كأنه البخار الصاعد من الماء الفائر ، ويبعث فى عزله المكان الهادئ فصلت الأشجار بينه وبين حياة الطبيعة خريراً أجش كأنه نزع الكليم من خيفة أن تفصل الحياة بينها وبينه . وبلغ الزورق الانحدار وسدّت فى وجهه السبيل ، ولم يبق له إلا أن يعود ، فارتقينا بضع درجات صنعت من الخشب ، وجعلنا نسير والماء ، ثم نصعد درجات أخرى نسير بعدها فوق الصخر ، ويقينا السقوط إلى الماء درابزون من الخشب امتد حتى بلغ بنا مصدر النبع حيث فورة الماء الأولى . ومن هناك خرجنا ، فألفينا عربتنا فركبناها ، فسار السائق بنا يتسلق هضاب هذه المنطقة المحيطة بإكس ، حتى إذا بلغ إحدى قممها أشار إلينا لنجتلى فيما حولنا هذا المنظر الجميل ، منظر الجبال الخضراء السفوح تطل على بحيرة بورجيه تلقى عليها شمس ذلك اليوم الجميل أشعتها فيحيلها الموج لجيناً متكسراً . وعدنا إلى الفندق حين استوت الظهيرة لنخرج منه بعد ذلك مصعدين فى المرتفعات الذاهبة إلى ما بعد إكس ، وكلها مزارع خضر ترتع فيها النعم وتقوم خلالها عزب صغيرة يقطنها مزارعون من أهل هذه الجبال يقومون فيها بأعمال الزراعة ، ويعنون بتربية الماشية والدجاج عناية خاصة . بين هؤلاء المزارعين وخلال مزارعهم شعرت بحياة جديدة انتقلنا إليها بعد باريس ولندن . حياة صحيحة نتنفس برئتينا فيها هواء نقيا يتخلل مسام الجسم جميعاً فينعش الروح والأعصاب ، ويرتفع بالنفس لتشارك الكون

فى كل حياته . ولتشعر أن هذه الكائنات كلها من ماء ونبات وشجر وحيوان وطير ، تحيا كما نحيا ، وتتنفس كما نتنفس ، وتنمو كما ننمو ، وتحس كما نحس ، فتألم وتطرب وتبتهج وتنقبض ، وتشاركنا ونشاركها فى هذا الكون هو كله وحدة متصلة نحن بعضها ، كما أن هذه الأحياء المحيطة بنا بعض آخر مثلنا ، أو لعله أعظم فى هذه الوحدة منا مكاناً .

وفى صبح الغد ركبنا سفينة بخارية تخطت بنا بحيرة بورجيه لنزور عند شاطئها الثانى ديراً ينقطع للعبادة فيه جماعة من الرهبان ، ويحتوى بعض آثار فنية قيمتها فى قدمها . على أن ما يحيط بالبحيرة من جبال هى مقدمات الألب الفرنسية أسبغ على البحيرة من الجمال ما يكفل متاع من لا تعنيه آثار الأديرة . فلما عدنا كان القطار الذى سافر بنا إلى سان جرفيه يقوم على أثر عودتنا . على أنا آثرنا أن نقطع الطريق عند آنسى لنبيت بها ونطوف فى صباح الغد أنحاء بحيرتها ، ثم نستأنف السفر ظهر ذلك اليوم . ودعانى إلى هذا الإيثار ذكرى ما قرأت فى جان جاك روسو عن آنسى وبحيرتها وما حولها ومنطقة شامبرى كلها . هذه المنطقة التى كان عاشق الطبيعة يتحدث عنها فى تهدج وإجلال ، ويرى فيها مبلغ ما أبدع الله على الأرض من جمال ، ولم يكذب الواقع ظنى ، فقد دارت بنا السفينة فوق بحيرة آنسى محاذية الشاطئ حيناً ، متخطية البحيرة من جانب إلى الآخر حيناً ، راسية عند بلاد هذا الشاطئ البديع ، مفنية فى دورتها ذهاباً وجيئة خمس ساعات كاملة استولى علينا البهر فيها جميعاً ، ولم ندر أية بقعة من بقاع هذه الشواطئ يمكن أن تفضل الأخرى . وقامت القرى المتصلة بها بين ألوان من الخضرة ذات رواء ولين وبهجة ، تظلها سماء تغرى روحها بالمحبة والعطف ، وتفتح النفس لحياة هذا الجو الفسيح كله جمال وهوى ، وأشهد لقد انقضت الساعات الخمس ، وعدنا إلى آنسى ، وتناولنا فيها طعامنا وركبنا القطار ولا حديث لنا إلا بحيرة آنسى وسحرها وفتنتها ، مما كان جديراً بأن يسبينا عن أنفسنا ويمسكنا فى إحدى قراها المحبوبة ، لولا ثقتى بأننا فى الألب نتخطى من جمال إلى جمال ، فالخير فى أن ننهل من هذا الجمال جميعاً .

وبلغ بنا القطار لفاييه ، ثم صعدنا منها بالقطار الصاعد إلى سان جرفيه أقمنا بها أربعة أيام خالدة على الزمن فى النفس ذكراها . ها نحن أولاء فى منطقة جبلية لا تعرف السهل ولا البطيح ، وإن عرفت الغابات وعرفت السفوح الخضراء مراعى النعم ومراتعها . وها نحن أولاء نقضى الكثير من وقتنا نتغلغل خلال هذه الغابات ونتسلق هذه السفوح ، ونندمج بكل وجودنا فى هذه الطبيعة ننال منها متاعاً وصحة ، ونقف فيها عند ساكنى هذا الجبل

يأنسون فيه بوحدتهم وسكينتهم أنس أهل المدينة بضجتهم ومضطربهم . على أن للطبيعة فى كثير من هذه الأنحاء الجبلية بدائع تزار لتقدس الطبيعة فيها كما يقدس بارئ الطبيعة فى هياكل المدن ومعابدها . ذهبنا يوماً إلى ثلوج بيوناساى "Glaciers de Bionassay" نشهد روعة الجبل عند قلله روعة تأخذ بالقلب والنظر والفؤاد . وثلوج بيوناساى ترتفع عن سطح البحر ألف متر وبضع مئات من الأمتار ، وترتفع عن سان جرفيه ألف متر أو نحوها . ركبنا القطار الصاعد ، فجعل يزحف متسلقاً الجبل بين الغابات تكسو أشجارها السفح من ناحية وتكسو الوادى المنحدر إلى يسار القطار من الناحية الأخرى . وعلى جوانب هذا الوادى تتبدى للنظر منازل منعزل بعضها كأنه صومعة الناسك ، مجتمع بعضها كأنه عزبة وسط واحة من الشجر . ويزداد البطء بالقطار فى زحفه وتسلقه كلما قام السفح أمامه عمودياً أو يكاد ، فيتيح لنا بطؤه أن نجتلى ما حولنا من جمال الجبل وسفوحه وأوديته . وظللنا كذلك ساعتين ثم بدأنا نشعر بالجو تهوى حرارته ، وبالسيدات يضممن إليهن معاطفهن . وبأم أو جدة لعلها تطلب إلى فتاها أن يلبس المعطف . وبعد ساعة أخرى وقفنا فى بطيح فوق الجبل به مطعم يتناول المسافرون فيه طعام الغداء ويجدون فى نبيذه وسيلة للدفء ، ثم يخرجون منه ليمتعوا نظرهم بهامات الجبال الرفيعة كستها الثلوج تيجاناً ناصعة البياض إلى ما تكسوها به الشمس ساعات بزوغها ومغيبها من تورد فحمرة فدم قان ولهب مستعر . والجبل الأبيض من بين قلل الألب هذه جميعاً يسمو عليها رفعة هامة ، ويكسوه الثلج بتاج تعنو له تيجانها جميعاً . فلما أمتع السفر من هذه المناظر أنفسهم عاد القطار زاحفاً متسلقاً ، حتى بدأنا نقترب من نفق طويل تتجلى من ورائه ثلوج هائلة كساها ضوء الشمس نوراً لألاء انبهرت له نواظرنا ، وخشعت قلوبنا وأفئدتنا ، وبقينا محدِّقين إلى الثلوج لا نملك أن نميل بالنظر عنها أو أن نفكر فى شىء سواها . تلك ثلوج بيوناساى التى قطعنا ويقطع المئات والألوف كل صيف هذا الطريق إليها عدا من يصلونها متسلقين الجبال على أرجلهم من الألبيين ومن ينسجون على منوالهم . واستمر القطار يتسلق فيقترب من هذه الفوهة الوحيدة التى تتبدى روعة هذا المنظر الباهر من خلالها ، على حين يصدم النظر هذا الجبل الأجرد الذى يخرقه النفق فلا يقف عنده ، ويعود ليحدق إلى ما بهره وسحره . وجزنا النفق ، وظل القطار يسير بعده زمناً حتى بلغ غايته . وهبطنا منه ثم صعدنا إلى ناحية الثلوج ، وحاول بعضنا أن يبلغها ، فإذا الطريق إليها وعر مخوف ، وإذا بنا نقف زمناً أمامها مشدوهين فى ذهول ، ثم يحاول بعضنا أن يصل ما بينه وبينها بحجارة يقذفها نحوها فتهوى فى وسط

الطريق ولا تبلغها . وآن للقطار أن يؤوب إلى سان جرفيه ، فتركنا هذا المنظر الجميل إليه ، فاخترق بنا النفق ، ثم انطلق مضاعفاً سرعته حتى بلغ البطيح . ثم اجتازه وهبط بنا إلى حيث بدأ فى الصباح صعوده ، وترك لباصرتنا هذا المنظر العظيم الجميل ما نكاد نذكره حتى يتبدى أمامنا بسفوحه وأوديته وأحجاره ومنازله وبطيحه وثلوجه .

والموقع الثانى الذى يحج الناس لزيارته هو شاغور ديوزا أو حلوق ديوزا ، إذا أردت الترجمة الحرفية للاسم الفرنسى (Les Gorges Diozas) وإذا قلت ديوزا فلا تذكر بجانبها سرفوز ، ولا تذكر شاغور حمانا ، ولا تذكر أكثر مساقط المياه فى الجبال مما رأيت ؛ فلديوزا جمال وجلال لا يدانيه فى تلك المساقط جمال أو جلال أو هيبة . دخلنا إلى حديقة أخذنا من غرفة فيها تذاكر تسمح لنا بزيارة المساقط . ثم تخطينا أبواباً وسرنا فى طريق ما لبث أن استدار فزجَّ بنا فى جوف الصخر ، حتى كنا نجيل البصر فى كل ما حولنا فلا نرى إلا صخراً يشقه الطريق كلما صعدنا وإياه زاد بنا فى جوف الجبل إيغالا . وبعد زمن سمعنا زئيراً تتجاوب أصداؤه فى هذه الفجوة من الجبل يصدمه جانب منها فيتلقاه جانب . ذلك زئير الماء المنحدر من قمة هذا الجبل فوق صخر لا يكاد يطمئن إليه حتى يسقط هاوياً فوق صخر آخر ، ثم فوق صخر ثالث ورابع . وهو فى كل واحدة من سقطاته يجأر ويزأر فلا يغنيه ذلك شيئاً ، بل تدفعه السقطة إلى السقطة حتى يهوى إلى حضيض يجرى فيه غديراً ساكناً مستسلماً خاضعاً لإرادة الإنسان ولأهواء الأرض التى يجرى بها . وتابعنا نحن إلى جواره مسيرتنا فوق مسالك من الصخر يفصلها عن الهاوية درابزون حاجز . ثم أصبح الصخر ولا سبيل للمسير عليه ، فمهدت الصناعة طريقاً من خشب يرتفع ثم يستحيل سلماً تصعد إليه لتصل إلى مهبط الماء أول سقوطه . وهذا المهبط عال يرتفع مئات الأمتار ؛ ولذلك يقتضى صعود الدرج فيه عناء ومشقة ، كما يتعرض الإنسان فيه لرذاذ هذا الماء الذى يستحيل كله رشاشاً أول ما يصدمه الصخر ساعة سقوطه عليه أو اصطدامه بجوانبه . على أنها مشقة لا تصد ، ورذاذ منعش يزيد النفس بهذا المنظر ابتهاجاً وغبطة ، ويدعوك لتتابع الدرج مستنداً إلى الدرابزون تارة وإلى جدار الصخرة تارة أخرى معجباً بالماء وانحداره وزئيره ، وبالصخر الأملس ينبت الماء العشب والشجر من خلاله ، وبكل هذه الفجوة كأنها البئر ، نقر فى الجبل صاعداً فوق الأرض يتدفق الماء من قاعه فيروى ما حوله ويكسوه جميعاً بهاء وخضرة ونضرة .

وغادرنا سان جرفيه إلى شامونى ، غاية الألب الفرنسية وأكثر البلاد الجبلية ارتفاعاً

وشهرة . وفى طريقنا إليها بالقطار الكهربى شققنا جبالاً جرداء وصخوراً بعضها فحمية اللون تلمع فى تموج يجعلك تقتنع بأنها كانت أخشاب غابات هائلة أتت عليها ريح صرصر عاتية فعصفت بها ، فضمرت تحت الأرض أكداس جذوعها فاستحالت جبلاً ، فتفحمت فصارت ما ترى . وبين هذه الجبال وجبال بعدها انطلق القطار فى أودية خضر ممرعة يروى بهاء خضرتها النظر الظمئ بعد تلك الجبال الفحمية إلى خضرة نضرة . فلما كنا بشامونى أحاطت بنا حياة الألب فى أوضح صورها ومعانيها . يلبس الناس غير ما يلبس المصطافون فى البلاد الأخرى ، ويحمل الكثيرون فى أيديهم عصياً فى أطرافها حديد مدبب تعاونهم على تسلق الجبل . ولا تكاد تغادر المحطة وتميل بعد ميدانها إلى الشارع الرئيسى حتى ترى نهراً يجرى خلاله متدفقاً ماؤه الأبيض اللون كأنه ثلج ما يزال . وعلى حافة هذا النهر قهوة يقصد إليها من لا يريد المكث بأماكن الشاى والحلوى . على أن القهوة وأماكن الشاى قلّ قاصدوها فى شامونى ؛ لأن زوار هذا البلد يقصدون نهارهم إلى الجبال يرتقونها ويستمتعون بجوها الصحيح ، فإذا كان الليل وجدوا فى فنادقهم ما يغنى أكثرهم عن القهوة وعن مكان الحلوى .

وزرت كثيراً من البلاد الجبلية المحيطة بشامونى . على أنا لم نكن لنغادرها دون أن نزور بحر الثلج بها . وتسلق بنا القطار الصاعد بعد ظهر يومنا الأخير بالمدينة إليه فوق سفوح قلّ شجرها ؛ أن كان جو المنطقة تكثر الثلوج فيه ، وتنحط حتى فى الصيف درجة حرارته إلى ما تتعذر معه حياة الشجر والنبات . فلما بلغ القطار غايته سرنا غير بعيد ، فبصرنا بين جبلين بواد منخفض يملؤه موج جامد لا حركة به . واستوقف هذا الموج نظرنا ، فقيل لنا هو بحر الثلج ، وطلب إلينا أن ننزل إليه وأن نسير فوقه . والذين يغريهم هذا النوع من الرياضة يلبسون فوق أحذيتهم جوارب حتى لا ينزلقوا فوق الثلج فيصيبهم من صلابته أذى ، ويمسكون بأيديهم هذه العصى المدببة الأطراف يستعينون بها على حفظ توازنهم فى مسيرتهم . وهبطنا حتى كنا عند شاطئ هذا البحر العجيب ، ولم تطاوعنا أنفسنا على هذه الرياضة الخطرة ، وإن كان من أهل هذه المنطقة من يعاونون عليها جماعة الذين تغريهم المخاطر ليقولوا إنهم فعلوها أكثر من معونتهم جماعة المولعين بالرياضة والذين يقبلون عليها تدفعهم فطرتهم وسليقتهم أكثر مما يدفعهم التطلع أو حب الغريب من الأشياء . وبرغم ذلك كله وبرغم الذين تخطوا الجبل إلى بحر الثلج ، فقد ظل بعضهم وفى نفسه ريبة أن يكون هذا الوادى كله بحراً ، أو بالأحرى نهراً من الثلج ، حتى كان المرتاضون فوقه يكسرون قطعاً منه يقذفون إلينا بها ليزيلوا كل شك من أية نفس تظل بها من الشك خلجة . وهو بالأحرى نهر الثلج ،

كالنهر فى مجراه وفى طوله وفى عدم انفساح شاطئيه حتى لا تراهما العين معاً . لكن أهل هذه المنطقة يسمونه بحر الثلج إجلالاً وإكباراً ، ولأن موجه الجامد هو بموج البحر أشبه .

وآن لنا بعد مقامنا بشامونى أن نغادر الألب الفرنسية ، وأن نغادر فرنسا إلى سويسرا نبدؤها بجنيف . وفيما نحن نعد عدتنا لسفر يكاد يستغرق يوماً كاملاً استعدت أمام ذاكرتى هذه الأسابيع السبعة التى انقضت منذ سفرنا من مصر ، والتى قضينا منها بفرنسا شهراً كاملاً ، فتوجهت بكل قلبى إلى هذه البلاد الجميلة وإلى عاصمتها مدينة النور ، وإلى جبال السافوا شاكراً بإخلاص أنعم الله علينا فيها أن أحالت لون الحياة أمام عيوننا فقضت فيه على صورة اليأس البشعة السوداء ، وأن بدلتنا منها صورة فيها من بسمات الرجاء ما كنا نلتمس قبل سفرنا خيطاً منه فلا يساورنا أمل فيه . وعاد بنا القطار الكهربائى من شامونى إلى لفاييه ، ثم انتقلنا إلى قطار آخر سار بنا ثلاث ساعات وسط زروع نضرة وجبال تتبدى قريبة آونة ، بعيدة أخرى ، مختفية حتى ما يكاد يلمحها البصر ثالثة . ومن هذا القطار انتقلنا إلى قطار ثالث بدأ مسيرته مع الليل حتى بلغ بنا الحدود بين فرنسا وسويسرا . ثم نزلنا جنيف ، وأقلتنا خلالها عربة إلى فندق روسيا ، أول الفنادق المطلة على بحيرة ليمان . وما هو إلا أن قاربت العربة جسر الجبل الأبيض الذى يجتاز البحيرة على مقربة من منابع نهر الرون وعند جزيرة جان جاك ، فإذا الجسر كله أعلاه وأوسطه وأسفله عرس من الكهرباء يهز القلب بالفرح والنشوة ، ويجعل الحياة أمام النظر كلها ضياء وأملاً ، هنالك توجهت لله بشكر خالص مرة أخرى . لقد حشدت باريس ولندن أمام النظر والذهن والخيال فنوناً من ألوان الحياة جعلت زوجى ترى الحياة بغير العين التى كانت تراها بها قبل أن تحل فيهما ، وتشعر بأنا قادرون على الحياة بالغة ما بلغت قسوة الحياة بنا ، والألم والأذى اللذان يصلان منها إلينا ؛ فكان لنا من ذلك شفاء للنفس والروح . ولقد تكشفت السافوا العليا عن صور من جمال الطبيعة ومن صفو الهواء بما فيه شفاء للجسم وأعصابه . وها نحن أولاء ندخل من سويسرا فى محفل الطبيعة الأكبر ، فيه غذاء للروح والجسم معاً . فلنسارع إلى النهل من ذلك ، وإلى الاستمتاع بعرس الطبيعة الدائمة الابتسام . لذلك ما كدنا نصعد إلى غرفتنا بالفندق حتى جلست أنا وزوجى إلى شرفته المطلة على هذا العرس ، وعلى بحيرة ليمان ، وعلى سماء وضاءة بنور القمر ، وعلى جو معطر بأريج الجمال ، وعلى حياة كلها نعمة كافر بالحياة من ينكرها ، نستمتع بذلك كله فيدخل المتاع به إلى نفوسنا وقلوبنا وأرواحنا فيضاً من السعادة .

فى سويسرا

« هنا يبتدئ الزمن القصير السعيد من أزمنة حياتى . هنا تجىء اللحظات السريعة الهادئة التى تجعلنى أقول إننى حييت . إيه أيتها اللحظات الثمينة المأسوف عليها ! ارجعى . . ارجعى فاسترجعى مسراك الهنىّ . انسابى فى ذاكرتى إن استطعت أكثر بطئاً مما كنت فى سرعة مرك . ما عساى أعمل لأطيل كما أريد هذه الذكرى البسيطة المؤثرة ، ولأقول وأعيد الأشياء نفسها ولا يمل قارئ بإعادتها كما لا أمل أنا باستعادة ذكراها ! ولو أن ما كان يومئذ كونته الوقائع والأعمال والألفاظ لاستطعت وصفه وتبيانه . ولكن ما ترانى أذكر عن شىء لم يقل ولم يعمل بل لم يأخذ أى مكان من الفكر . ثم هو قد ذيق بل أحس ، وليس لدىّ ما أستظهر به سعادتى غير ذلك الإحساس نفسه ؟ كنت أستيقظ مع الشمس وكنت سعيداً ، كنت أتنزه وكنت سعيداً . كنت أرى أمى وكنت سعيداً . وكنت أتركها وكنت سعيداً ، كنت أقطع الغابات والأحراش ، وكنت أجوب الأودية ، وكنت أقرأ وأسكت وأشتغل فى الحديقة وأجمع الفاكهة ، والسعادة تتبعنى حيث كنت ولا تستطيع تركى لحظة ، لأنها لم تكن فى شىء معين بل كانت ممتزجة بنفسى وروحى » .

هذه صورة من اعترافات جان جاك روسو عن مقامه بالشارمت على مقربة من شمبرى . وهى صورة صادقة للزمن الذى أقمنا بسويسرا . فقد كنا نجوب خلالها وكنا سعيدين . وكنا ننزل بلادها وكنا سعيدين . وكنا نهبط أوديتها ونصعد جبالها ونخترق ثلوجها ونركب بحيراتها ونتنسم هواءها ونستمتع بأرج عبيرها ، وكانت السعادة تتبعنا حيث ذهبنا ؛ لأنها لم تكن فى شىء معين مما نرى أو نسمع ، بل كانت ممتزجة بنفسينا وبروحينا .

والحق أن سويسرا جديرة بأن تبعث إلى أشد النفوس انقباضاً ما يزيل انقباضها ويفرج كربتها . فقد حبتها الطبيعة موقعاً وجواً وجمالا لا يدانيه فيما رأيت من ربوع العالم كله جمال . جبالها وبحيراتها وغاباتها ذات حياة لا يعرفها غيرها من البحيرات والغابات والجبال ؛ ذلك بأن أهل سويسرا مزجوا حياة الطبيعة بحياتهم ، وحوروا فى صورتها بما يلهمه ذوق الجمال للإنسان ، فنفخوا فى سفوح الجبال وفى أغوار صفائحها وفى أعالى قللها روحاً تجعل بين الإنسان والجبل شركة وثيقة الاتصال طويلة العمر قديمة التاريخ ، أكبر غرضها التعاون

على المزيد مما حبت الطبيعة الجبل به من جمال ليزداد الإنسان بالجبل وجماله متاعا ؛ وقد امتدت يد الإنسان إلى البحيرات كذلك ، فجعلت فى لجها وفى جوها الرقيق الصافى مثل هذه الشركة فى المزيد من الجمال ومن المتاع به ، وبلغ من متانة هذه الشركة بين الإنسان والطبيعة فى سويسرا أن الإنسان يعجز اليوم لو حاول تصور أحدهما دون الآخر ، عجزه لو أنه حاول أن يتصور جسما حياً لا روح فيه ، أو روحاً يقع عليه الحس ولا جسم له تتصل بالحس أجزاؤه .

وهذه الشركة القديمة التى تعاقبت عليها الأجيال قد ربط بينها روح تضامن فى سبيل غرض واحد وغاية مشتركة ، هما بعث الحياة الإنسانية فى هذه الكائنات الطبيعية ليجلى على أهل الأرض جميعاً صورة نادرة من الجمال الحى يستمتعون بها أحراراً متساوين متاعاً مشتركا . فأنت لا ترى صومعة معلقة فى جبل تحدث عن زاهد منقطع إلى الله وعبادته . ولا ترى قصراً منيفاً تحيط به أكواخ الأتباع والخدم محدثة عن أبيقورية مترَف أثِر لا يعرف من الحياة غير نفسه ، فإذا رضيت نفسه فعلى الحياة وعلى الإنسانية العفاء . بل أنت ترى الجمال منثوراً بأيدى الأجيال لمتاع من يتعاقب من الأجيال ، وأنت ترى قوى الطبيعة كلها مسخرة لمتاع من شاء المتاع من أهل الإنسانية كلها . وأنت تحس حيث كنت من سويسرا كأن كل شخص من أهل هذه البلاد قد عاون جهد طاقته ليزيد فى جمالها وليبعث إليها من جمال روحه كل ما حوت روحه من حب إياها وتعلق بها ، وكأن كل إنسان رأى فى شيء منها نبواً عن ذوق الجمال الوليد معه قد آلى على نفسه إلا أن يزيل النبو وأن يغرس مكانه من الجمال مزيداً . والطبيعة العادلة المحسنة التى لا تنسى جزاء إنسان بإحسانه قد جزت هذا الشعب عن حبه الجمال أن ازدادت هى الأخرى جمالا ، وأن ازدادت فى أحضان الألب تبرجاً وزينة ؛ فثلوج سويسرا وأقمارها ونجومها وشموسها ليست ككل الثلوج ولا ككل الأقمار والنجوم والشموس ، بل تكاد تكون من صناعة رب فن ماهر أبى عليه فنه أن يكون بين هذه الثلوج والكواكب وبين ما على الأرض من جمال نشاز ، فشارك الإنسان فى عبادة الجمال بأن جعلها أبهر زينة وأبرع جمالا .

وهذا العرس الذى قابلتنا به جنيف على جسر الجبل الأبيض تتخطى فوقه بحيرة ليمان فى اختراقها مدينة كالفن ، هو بعض هذه الشركة المبدعة بين الإنسان والطبيعة ، وإن لم يكن أروع ما أبدعت الشركة من منشآت فذة . وبحيرة ليمان من جنيف إلى مونتريه أكبر شاهد على افتتان السويسريين فى المزيد من جمال البحيرة وشاطئها ، على

حين ترى شاطئها الفرنسى لا يلقى من العناية إلا ما تلقى جبال السافوا العليا . على أن ليمان وحدها بدعة ساحرة تتغنى مياهها ، والجبال المحيطة بها والغابات الكاسية سفوح هذه الجبال ، والسماء التى تظل الجبال ، ولج البحيرة جميعاً ، بأنغام من ألوان باهرة تلتهمهـا العين فيطرب لها القلب وتنتعش بها النفس ، ويشعر الإنسان معها كأن روحه وفؤاده قد استحالا أوتاراً توقع هذه الأنغام عليها . وما كان أشد طربنا لهذه الأنغام حيث سرنا على شاطئ ليمان ، أو صعدنا فى الهضاب المحيطة بجنيف ، أو جدفنا فى زورق فوق البحيرة أو دارت بنا بواخرها لتمتع السائحين بمناظر شواطئها الساحرة ! وما كان أشد اختلاف هذه الأنغام باختلاف ساعات الليل والنهار ! ما كان أرقها وأجملها ساعات المغيب حين يتجاذب الليل والنهار حتى يتعانقا ثم يفنى أحدهما فى صاحبه . قضينا بجنيف ستة أيام نستمتع بهذه الصور جميعاً فى مرح ونشوة ، ولا يدع لنا استمتاعنا بها أن نتابع ما كان يجرى فى عصبة الأمم ، وكانت منعقدة وقتئذ ، وكانت جريدتها تصل إلينا مع الصباح وقبل طعام الإفطار . فلما فكرنا فى مغادرة جنيف إلى لوزان ولم نكن قد ارتقينا واحداً من جبالها ، استشرنا دليل « بدكر » ، كما استشرنا رجال الفندق ، فأشارا علينا بالصعود إلى جبل ساليف . فلما كان الصباح رأينا الجو مكفهراً . فترددنا بعض الشىء ، وسألنا أهل الفندق : أهم يتوقعون مطراً ؟ قال أحدهم :

– كلا ! فجو المطر تملؤه روائح السمك كأنما هو يقترب من سطح البحيرة لينعم بالماء الجديد الساقط إليها ، وليس فى الجو من هذه الروائح شىء .

وتخطينا جسر الجبل الأبيض Pont de mont Blanc إلى شارع الرون بالميدان الذى يقوم منه الترام إلى فيربيه ليتصل بالقطار الصاعد إلى الساليف . ومر الترام أثناء صعوده شوارع جنيف ، بميادينها الفسيحة وطرقاتها الواسعة وبالخضرة الباسمة رجاء المطر ، العابسة فى هذا الجو المقطب الجبين بالسحب . ثم غادرنا حدود المدينة إلى الضواحى الناضرة التى تقوم فى أحضان الألب على الحدود بين سويسرا وفرنسا . فلما اجتزنا هذه الحدود صعد إلى الترام عامل الجمرك الفرنسى ، وسألنا عن جواز السفر ، وكان معنا فى القطار إنجليزيـان ألقى عليهما هذا السؤال ، وكنا جميعاً قد تركنا الجواز فى فنادقنا إذ لم يكن يدور بخلدنا أن نزهة ساعات قصيرة نتخطى فيها الحدود لنعود بعدها أدراجنا تحتاج إلى ما تحتاج إليه السياحات الكبيرة من عدة . وبعد أن ألح الرجل فى ضرورة عودتنا من حيث أتينا تسامح وتركنا نسير فى طريقنا . وما أدرى أكانت تطيب نفسه بمثل هذا التسامح لو أننى

كنت وحدى ، أو لو أنه كان معى مكان السيدات الثلاث اللائى نظرن لهذا التصرف بدهشة باسمة ، ثلاثة رجال بالغة حجتهم ، ساحر بيانهم !

وارتقينا القطار الصاعد إلى جبل ساليف ، فجعل يتسنم الجبل بين سفوح قامت فوقها الأشجار الباسقة والشجيرات اليانعة ، وأزهار قليلة منثورة من حين إلى حين . وكنا كلما تقدمنا ازداد الجو عبوساً وتساقط السحاب فى الأودية بين القمم والجبال المختلفة . على أن تلبد السماء من فوقنا وانحدار الغمام فى الأودية المنخفضة دوننا لم يبلغ من الكثافة أن يحجب النضرة اليانعة المحيطة بنا . بل ظللنا فى ارتقائنا ننعم بمنظر رقيق من ورق الشجر الأخضر لما تعد عاديات الخريف منه إلا على قليل . وكنا وكان المسافرون معنا يملؤنا الأمل أن يبدد خيط من ضياء الشمس هذا القتام الذى كان يزداد تراكما كلما ازددنا ارتفاعاً . وكيف نرجو ، إذا لم ترسل الشمس من نورها الوضاء ما يجلو الجو ، أن نرى ثلوج الجبل الأبيض التى طالما نعمنا من قبل بمرآها ، أو أن نمتع النظر بخضرة الجبال التى لا يعلوها الثلج . لكن القطار وصل إلى غايته وأملنا ما يزال سراباً ، فصعدنا الجبل إلى فندق قائم فوقه كأنه صومعة الناسك فى عزلته ، ودخلنا غرفة الطعام نتناول غداءنا ، فألفينا من فيها قد أقفلوا أبوابها ونوافذها اتقاء البرد القارس فى هذه الظهيرة العابسة .

وفندق الساليف كفنادق الجبال فى بساطته ورشاقته ، لا ترى فيه آثار نعمة المدن من فرش وثيرة وأبهة ووجاهة . لكنك تجده ظريفاً فى بساطته ، نظيفاً كل النظافة ، على مناضده مفارش بيضاء نقية من غير تطريز ، وآنية بيضاء نظيفة ، وكل ما تحتاج إليه فى طعامك وشرابك . ولقد أخذنا مقاعدنا إلى إحدى مناضده وأدرنا نظرنا نلتمس الخادم فلم نجد أحداً ، فانتظرنا هنيهة ثم إذا باب فتح وظهرت منه فتاة لا أحسبها تزيد على الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها ، وإذا هذه الفتاة هى وحدها القائمة بخدمة كل الذين يتناولون طعام الغداء ويبلغون الخمسة عشر عداً ، تأتيهم بطعامهم وشرابهم وتقوم بمحاسبتهم وأهلها من ورائها يطهون الطعام لتقدمه هى إلى متناوليه .

كانوا يحدثوننا من سنين خلت أن صبياناً أو فتيات كانوا سبب سعادة المتاجر التى يحلون بها ، حتى كان التجار يتنازعونهم لتسعد بهم متاجرهم ، وكنا بعد أن تحدرت من حولنا سنو الصبا نذكر هذه الأحاديث فنضحك منها ساخرين . ولو أن كلا منا أتيح له أن يرى صبية فندق الساليف وأشباهها من الصبايا القائمات بشؤون التجارة فى

مدائن أوربا وأريافها لما سخرنا من هذه الأحاديث ، ولصدقنا بما يحمله الصبا فى إرادته من أسباب السعادة .

وصبية الساليف ليست ذات جمال فاتن ، وليس لها من الدلال ما يهوى إليه الفؤاد ؛ بل هى ككل الريفيات ، كثيرة البساطة شديدة الحذر ، تضن بالابتسامة مخافة أن تتهم بالخلاعة ، وتقل من الكلام حتى لا تكاد تجيبك إلى ما تسأل عنه بجملة كاملة . وأرنبة أنفها المستديرة تربى على قصبة الأنف بما لا تقره قواعد الجمال . وهى بعد فى لباس جمع إلى الذوق الريفى حشمة الفقر . وليس لها من رشاقة الباريسيات أو خفة بنات المدن كثير ولا قليل . لكن فى أردانها مع ذلك أسباب سعادة هذا الفندق المنقطع فى قمة الجبل والذى يأوى إليه مع ذلك من الناس غير قليل .

ذلك بأنها صبوح الوجه ضاحكة السن ، وبأن الطبيعة قد جملتها من ذلك بما يعجز أمهر فنان فى صناعة الجمال . ترى وجنتيها فتدهش لتوردهما ، وترى صدغيها فتدهش لنقاء لونهما الأبيض المشرب حمرة . ولها شفتان دقيقتان لا يطاوعانها إلى عبوس لأنهما دائمتا الابتسام . ونظراتها البريئة وقوامها اللدن ما تزال فيهما كل معانى الطفولة المتدرجة إلى ريعان الصبا ، الجامعة إلى الطهر النزيه أسباب النضارة الودود . فإذا أقبل ذلك كله عليك رأيت ابتسامه وسمعت حديثه وإن لم تبتسم هى ولم تتكلم ، ورأيت إقباله عليك فأقبلت عليه فى تلطف وابتسام ، وسرك ما تقدم صاحبته لك لأنها هى التى قدمته لك .

ولذلك أقبل كل الذين نزلوا فندق الساليف على طعامهم أكثر اشتهاء له وحرصاً عليه ، خلا شاباً وفتاة لم يكونا أقل ممن سواهما على الطعام إقبالا ، ولكنهما كانا معرضين عن الصبية لاشتغال كل واحد منهما بصاحبه . ولقد بلغا من ذلك أن ترك الشاب مقعده بإزاء الفتاة إلى مقعد بجانبها ليكون أقرب إلى نيلها . وما كان ليلاحظ ذلك عليهما أحد أو يأخذهما به ، والناس يحترمون الحرية احترام إجلال وتقديس ، لولا عجائز جلسن بإزائها وجعلن يتهامسن لكل ما يرينه من حركاتهما . وكأنما كانت بين العجائز ثقيلة السمع ، فكانت بعض عبارات حديثها لا تخفى على الحاضرين وإن لم تغير من أمر الشاب والفتاة شيئاً . ولعل كثيراً من حديث أولئك الجدات كان يشير إلى أيام صباهن وحوادث غرامهن ، وإلى تلك الأوقات اللذيذة التى هوت فى ظلم الماضى تاركة وراءها ذكريات تطيب استعادتها ويحز الألم فى النفس أن لا سبيل من بعد إلى مثلها . وأى شىء غير هذا تراهن يذكرن بإزاء الصبا اليانع تتقارب زهراته الندية ! إنهن لا شك أبعد من أن ينلن مظاهر الحب بسوء وهن

يرين فى الحب حياة وقوة ولا يجدن فى مظاهره ما يعافه معروف قومهن من قواعد الخلق . بل لعلهن كبعض أصدقائنا المصريين الذين تحدثوا فى شتى الشؤون إلينا يقلن لمن ينال المحبين بسوء ويرفع العقيرة ناعياً الأخلاق وانهيارها : – هون عليك يا صاح ولا تقف عند النظر إلى هذه الشؤون التافهة ؛ فليست هذه كل حضارة الغرب وإن كانت بعض آثارها . بل انظر إلى ما حولك من سائر المظاهر فى الفن والأدب والصناعة والاختراع والاستكشاف . فإذا علمت أن ذلك كله من عمل أولئك الذين تنعى عليهم سلوكهم وتعيبهم أخلاقهم ، فراجع نفسك وتذكر أن هذه الحضارة اليانعة القوية الثابتة لا يقوم بإنشائها وحفظ كيانها من لا أخلاق له أو من ساء سلوكه .

وكان الجو خارج الغرفة يزداد قتاماً ، والسحب تزداد تراكما . وخرج أحد الحاضرين بعد ما ارتدى معطفه ثم عاد معلناً أن رذاذاً يتساقط وأن الوقت قر ، وأن لا سبيل إلى نزهة الجبل . وكذلك تداعى كل أمل فى مشاهدة الألب السويسرية والفرنسية من هذه القمة البديعة ، ولم يبق إلا العودة إلى جنيف من طريقها الثانى المار بأنماس . فعكف الحاضرون على قهوتهم يشربونها ، وعلى سجائرهم يدخنونها . وكان بيننا رجل وزوجه ومعهما ابنتهما الطفلة التى لا تزيد على السنتين من العمر إلا قليلاً . ولما رأت من السيدات مدخنات جعلت تضع فى فمها عوداً دقيقاً تقلد به بنات جنسها ممن تخطين حدود الطفولة . ولقد كانت فى تقليدها وفى لعبها وفى حديثها سلوى للحاضرين عن الجو وعبوسه والسماء وقتامها .

ثم غادر الناس الغرفة الدافئة بأنفاسهم وبحرارة الطعام والنبيذ ، وانحدروا يطلبون المحطة فى انتظار القطار . وتلفتّ إلى ما حولى فإذا الأودية كلها قد ملأتها السحب حتى صار كل ما حولنا لجة من غمام غرقت فيها أطواد الجبال فاختفى بعضها بما عليه من نبت وزهر وشجر ، وبقيت ظهور بعضها طافية كأنما هى حيتان ضخمة تسبح فى لجة السماء المذابة ركاماً . وسرحت النظر ألتمس الأفق ، فإذا منظر قفر ما أذكر أنى رأيت مثله فى سياحاتى ، وما أحسب كاتباً يقدر على حسن وصفه مهما أوتى من البيان . فهذه الحيتان السابحة ، وهذه اللجج المترامية ، وهذه السماء المذابة تشتملها عند الأفق ظلمة تخلط الليل بالنهار فى هذه الساعة التى تتكبد فيها الشمس السماء وتعالج عبثاً أن تنفذ إلى الوجود وتبعث إليه آية الحرارة والنور . وفى هذه الظلمة لا ترى سحاباً ولا جبلا ولا سماء ، وإنما هو ديجور منتشر تعبث فيه آلهة الظلمة بآمال الناس فى خيط من ضياء . وفيما اليأس يعمل فى النفوس إذا برق يخفق يخطف سناه الأبصار ويضىء لحظة هذا القتام الداكن ، وإذا رعد يبعث إلى السكينة

الموحشة فوق قلل الأجبال زئيراً تهتز له النفس من خيفة المطر الهتون . واستغرق البرق والرعد ثانية أو بضع ثوان ، ثم عادت السكينة الموحشة والظلمة المهوبة ، وازدادت أشباح الحيتان السابحة جلالا ورهبة . ولكن السماء ظلت ممسكة ماءها إلا رذاذاً ، وظل من حولنا ينظرون إلى ساعاتهم يقدرون الدقائق الباقية لوصول القطار . أما الطفلة التي كانت معنا فى قاعة الطعام فلم يزدها البرق والرعد إلا إمعاناً فى اللهو والضحك ، وكأنها آمنة ، ما رأت أباها ، من عدوان الطبيعة وغدر القدر . وطالت الدقائق الباقية كأنما هى باقية على ساعة البعث والحساب .

ثم ظهر القطار زاحفاً إلى القمة ، فعلت الثغور ابتسامة التحية وأخذ كل مكانه مطمئناً إلى اتقاء ما يخشى من صيب السماء . وانحدر القطار صغيراً ضئيلا تحفه السحب من كل جانب فما يكاد النظر يرى من النبت المحيط به إلا القليل . واستبدلنا به غيره هبط بنا إلى أن اتصل السفح بالأرض . ثم استبدلنا بالقطار تراماً أقلنا إلى جنيف ماراً بأنماس فى شوارع وطرق دون شوارع جنيف وطرقها جمالاً .

* * *

وأصبحنا فى الغد فإذا الجو مطير والسماء هتون والشمس فى الحجب ، فلزمنا فندقنا آملين صلاح الجو بعد الظهيرة . لكن المطر ظل هاتناً فحبسنا فى فندقنا . فلما كان المساء ذهبنا إلى مسرح الكوميدى نمضى فيه شطراً من الليل نعتاض به عن سجن النهار . وخرجنا فى منتصف الليل ، وحاولنا أن نعود إلى الفندق على أقدامنا ليطول استمتاعنا برقيق هوائه ، فلم يطل بنا السير أن انفجرت أفواه السماء أكثر تهتاناً منها طوال النهار وذهبت من ناحية وزوجى من الأخرى نصيح بعربة أو أوتموبيل يقينا هذا المطر . على أنا لم نعبس له ولا بعث تهتانه إلى نفوسنا أى امتعاض ؛ فقد كفل المرح الذى يملأ جو سويسرا كلها طمأنينة نفسينا إلى كل شيء واغتباطها بكل مظاهر الطبيعة وبالمطر يكاد يغرقنا رغم احتمائنا منه بالجدران والأبواب . وعثرنا آخر الأمر بأوتموبيل ركبناه إلى الفندق فقابلنا رجال السهرة فيه بابتسام لما رأوا ما عليه حالنا . فلما أخبرناهم أنا مسافرون فى الغد إلى لوزان نصحوا إلينا أن نتخذ طريقنا إليها فوق البحيرة على الباخرة « هلفسيا » ، أكبر بواخر ليمان وأكثرها جمالاً وحسن نظام .

ونزلنا « أوشى » ميناء لوزان على البحيرة ، واخترت فندق بوريفاج حيث وقعت معاهدة لوزان . وأذكرنى هذا الفندق نزولى صيف سنة ١٩١٠ بفندق إنجلترا من فنادق أوشى ؛ لأن لورد بيرون كتب به قصيدته « تشيلد هارولد » ؛ فقد وضع فندق إنجلترا

على جداره لوحة يسجل عليها هذا الحادث الجليل فى تاريخ الأدب ، ووضع فندق بوريفاج على جدار بهوه الكبير الذى وقعت المعاهدة فيه لوحة يسجل عليها هذا الحادث الخطير فى تاريخ السياسة الدولية . وأوشى ضاحية ظريفة بسامة تقابل أفيان على الشاطئ الفرنسى لبحيرة ليمان ، ولكن لها من البهاء والجمال أضعاف مالأفيان وإن لم تكن لها مثل مياهها المعدنية . وفندق بوريفاج زينة أوشى ببارع حدائقه المتدرجة من الهضبة التى يقوم الفندق عليها إلى الشارع المتصل بشاطئ البحيرة ، وبجمال عمارته وبفسيح أبهائه وصالاته . وإنا لنتخطى صالوناته قاصدين إلى غرفة الطعام إذا بالسيدة التى نيفت على التسعين والتى استرعت نظرنا فى إكس - لى - بن حين جاءت إلى المائدة فى عربة ، ثم أسندها خادمان حتى أوصلاها إلى مجلسها بإزاء حفيدها ، وإذا حفيدها يدفعها فى عربتها فلما وقع نظرها علينا ابتسمت وحيت برأسها تحية جميلة جعلت زوجى أشد بمشيبها براً وعلى المشيب كله عطفاً . ولعلها رأت بعد هذه الابتسامة أنه كان يحسن بالشيوخ وبالعجائز أن ينزووا حين كانت الحياة فى اعتبار الناس شراً يتبرمون به ويتمنون الخلاص منه ؛ لأنها كانت فى نظرهم عبئاً ثقيلا بما تقتضيه من جهد وكد لا عوض عنه فى مرح أو مسرة ؛ ولذلك كان من حقهم أن يروا الفضيلة فى الزهد والانزواء . أما اليوم وقد تكدس فى الحياة من أسباب النعمة ما خلقته الأجيال المتعاقبة خلقاً وما أبدعه الخيال والعقل ، فقد وجب أن يتغير الاعتبار القديم ، وأن ينظر الناس إلى الحياة على أنها خير يجتنى ومورد سائغ يزداد عذوبة كلما كثر رواده والمستمتعون به ، وكلما كان من بينهم هؤلاء الشيوخ والعجائز الذين يزيدون الحياة جمالاً بإقبالهم على الاستمتاع بكل ما فيها مما يرونه خيراً ونعمة .

ويصل الترام بين أوشى ولوزان فى دقائق معدودة مرتقياً هضبة بنيت فوقها المدينة تطل منها على مياه ليمان يستمتع أهلها بمنظرها فى أماكن عدة منها . وليس فى المدينة كثير يستوقف النظر ما يستوقفه قصر العدالة بها قامت عمارته الجميلة بين حدائق وأشجار هى لأهل لوزان متنزه حر وموضع جمال ومسرة . على أنا لم نكن نعنى بتقصى ما فى المدينة من آثار وعمارة بعد الذى شهدنا منهما بالعاصمتين الفرنسية والإنجليزية وبعد قصور جمعية الأمم فى جنيف . ثم إن ما يحيط بالمدينة من غابات كان أكثرها اجتذاباً لنا كى نجد فيه هذا الهواء الصافى الصحيح الذى يقوى حب الحياة فى نفوسنا . خرجنا ذات صباح إلى غابة قاصية يقطع الترام أكثر من ساعة فى مسيره إليها فى بطيح من الأرض لا يقع النظر حتى آفاقه على جبل أو شبه من جبل . وهبطنا قرب الظهيرة ، فكان أول همنا أن نعرف

أين نتناول غداءنا . وسألنا فدلنا رجل هو وحده الذى استمر معنا إلى غاية ما وصل إليه الترام ، على مكان قال إنه الوحيد فى الناحية . وقطعنا إليه مسيرة ربع الساعة ، فإذا هو كوخ ما كنا لنرضى أن نجتاز بابه لو لم يضطرنا إليه أن لا سبيل إلى غيره ودخلنا إلى صالة فسيحة كثيرة النوافذ بها بار وبها بضع مناضد حولها كراسى من الخشب المكسو بالقش من ذلك النوع الذى عفا ولم يعد يرى إلا فى أحياء العوز والمتربة . ولم يلك إلا دقائق حتى دخل إلى المكان عدة أشخاص فى قبعاتهم ريشة خضراء وهم يلبسون لباس الصيد ويحمل كل منهم بندقيته ويتكلمون لغة لا نكاد نفهمها . وجاءت خادم سألناها عما تستطيع أن تقدمه لغدائنا ، فعلمنا أنها تصيد السمك من نهر قريب ، ولكن صيدها لم يكن فى ذلك اليوم مثمراً . وكنا قد رأينا حول المكان دجاجاً . فسألنا أتستطيعين أن تطهى لنا منه شيئاً ، فترددت ، ثم أجابت رغبتنا بعد ما أخبرتنا أن الطهى يحتاج إلى ساعة أو نحوها ، فوافقناها على ذلك ، وخرجنا نقضى هذه الساعة فى الغابة الهائلة الممتدة إلى ما لا نعرف حدوده نجد خلالها روعة جمال وبديع متاع . وعدنا بعد انقضاء أكثر من ساعة ، فقدمت الخادم الطعام إلينا دجاجاً وبطاطس أقبلنا على التهامه بشهية ، ووجدنا فيه لذة لم نجدها فى أفخر طعام تقدمه أعظم الفنادق ، مما جعلنا نأنس إلى هذا الكوخ الذى كان موضع ازدرائنا وتقززنا حين وقع نظرنا عليه ساعة مجيئنا . وعدنا إلى الغابات حتى قارب المغيب . فعدنا إلى لوزان ثم إلى أوشى وكلنا على طعام العشاء إقبال وله شهية .

وآن لنا أن نغادر لوزان إلى أنترلاكن ، فركبنا البحيرة حتى مونتريه والقطار إلى مدينة اليونج فراو . هنا يقف بى القلم إن أنا حاولت وصف هذا الطريق يتعلق النظر والقلب والفؤاد بكل جزء منه ، لأنه يرى فى كل جزء منه جمالا جديداً . مرت الباخرة « بفى » فذكرت روسو ، وذكرت هلويز الجديدة ، وذكرت بيرون وشلى ، فكنت لهم جميعاً عذيراً مما بعثته هاته البقاع إلى نفوسهم من حب وشعر وولع بالجمال وجنون بالطبيعة . كلا ! ليست ليمان هنا بحيرة ، ولا هذه الأرض من حولها شواطئ ، ولا هذه المرتفعات جبالا . وليست تظلنا هاهنا سماء كالسماء التى تظل العالم كله ، بل هذه صورة افتن فيها خيال روفايل فنقشها بريشته ثم قيل لنا هى ماء وشواطئ وجبال وسماء ، وكيف سما خيال روفايل ليضع فى هذه الصورة الساحرة ما فيها من حياة وغرام وفتنة وبهر ! لقد كنت أرى على وجوه المسافرين جميعاً من طمأنينة النعمة الراضية ، وفى نظراتهم من الاستسلام لروعة هذا الجمال ، مثلما ترى فى نظرة المحب وعلى وجهه ساعة يلتقى بمحبوبته الفاتنة .

وهل كانوا يستطيعون مقاومة هذا السحر وما حولهم من موج البحيرة وضحك الزهر وابتسام الشجر ورقة الهواء وخضرة السفوح وحنان السماء كله سحر وحب وهوى ! وظلت الباخرة تجرى بنا فترينا من اختلاف مناظر الشاطئ ما يزيد فى أسره ألبابنا ، حتى بلغنا مونتريه قرب الظهيرة . وأخذ جمال متاعنا على عربة يد وتبعناه إلى محطة السكة الحديدية نصعد الطرق إليها فى هذه المنطقة الجبلية تتجاوز مدنها الشوارع مرتفعاً أحدها عن الآخر أمتاراً عدة . على أنا لم نسر وراءه غير بعيد حتى رأيناه يجرى بالعربة ، ثم انعطف إلى طريق غاب فيه عن أنظارنا ، حتى خيل إلينا أنه فر بمتاعنا فرار لص أثيم . . . وأغذذنا السير حتى بلغنا المحطة وجعلنا نلتمسه فيها فلم نجده . فقصصنا الأمر على أحد رجالها فقيل لنا إنه قد يكون فى المحطة العليا . والمحطة العليا ترتفع عن المحطة السفلى أكثر من عشرة أمتار يصعد الإنسان إليها على درج أحسبه منقوراً فى صخر الجبل . فأشرت إلى زوجى أن تنتظر حتى أصعد فأرى الحمَّال وما صنع الله به وما صنع هو بمتاعنا ثم أعود إليها . ووقفت أجيل بصرى فى هذه المحطة العليا ، فإذا الفتى مقبل على يخبرنى أنه التمسنا فلم يجدنا ، وأنه أودع متاعنا فى الأمانات ، وأن القطار يقوم فى الساعة الثانية . وذهبت معه إلى الأمانات ، فاطمأننت حين رأيت كل شيء كما أحب ، وحمدت فى نفسى للفتى أمانته وجزيته عنها ، ثم عدت فهبطت ، وخرجنا من المحطة إلى فندق يقابلها نتناول فيه طعام الغداء انتظاراً لموعد قيام القطار فى الساعة الثانية من بعد الظهر .

وركبنا القطار وبدأ مسيره . ولئن كان الطريق الذى مر به والذى مر به القطاران الآخران اللذان انتقلنا إليهما حتى وصلنا أنترلاكن كله روعة ؛ بسمو جباله البديعة السفوح وأوديته الممرعة الخضرة ، إنى لن أنسى حياتى الساعة الأولى لمغادرتنا مونتريه حين جعل القطار يتسلق الجبل ثم يستدير صاعداً ، فتتبدى البحيرة منحدرة إليها سفوح خضر غاية فى النضرة ، ثم يستدير ثانية فإذا الجبل يعدل البحيرة جمالا ، ثم يستدير مرة أخرى فإذا البحيرة فى منظر أروع وأشد سحراً . فى هاته الساعة كان السَّفْر يبدون من الإعجاب كلما تبدت البحيرة لناحية منهم ما جعل العربة والقطار كله إعجاباً متصلا . ويرتفع القطار فوق الجبل وتتبدى البحيرة أمام المنظر تتسع خضرة السفوح الفاصلة بيننا وبينها فى كل استدارة للقطار فترينا منظراً جديداً عجباً . وبعد استدارة أخرى أوغل القطار فى الجبل يشق طريقه إلى سويسرا الألمانية .

وبلغنا أنترلاكن فى الساعة العاشرة من المساء ، وأوينا إلى فندق فيكتوريا ويونج فراو .

وأنترلاكن قرية صغيرة لا يزيد سكانها من السويسريين على ألفين ، ولكنها مصيف قد يقصد إليه عشرات الألوف كل صيف تجذبهم الأوبرلند تتجلى الألب فيها بما لا تتجلى بمثله من روعة فى سائر أنحاء سويسرا مما شهدت . ذلك أن الألب فيها عظيمة الروعة بارتفاع قممها ، وبأن الإنسان شارك فى تجميلها وفى تيسير ألوف الأمتار التى ترتفعها ليصعد المصطافون إلى قممها أو ليخترقوا جوفها . هذا إلى أن بحيرة ثون وبحيرة بيين المحيطتين بها تبلغان الغاية من الروعة حين تحصرهما القمم الرفيعة تتراءى بعضها فى إثر بعض ، حتى لترى أحياناً قمماً ثمانياً تقابل نظرك ، وترى الماء منحدراً منها إلى البحيرة فى اندفاع وقوة تحيلانه رغاء وزبداً .
ومما شارك الإنسان الطبيعة فيه مما حول أنترلاكن كثيراً ما أذكر منه هنا ثلاث صور تصدم كل واحدة منها الخيال وإن تفاوتت فى ذلك بين العجب المخيف فى هاردركلم ، والدهشة المرتاعة فى بياتس هوهلن ، والإجلال والإكبار فى اليونج فراو . فأما الهاردركلم أو قمة الهاردر فالعجب فيها هو القطار الصاعد إليها . هو لا يصعد على السفوح منعرجاً مع ميولها كما كان يصعد القطار الذى ذهب بنا إلى الساليف أو إلى ثلوج بيوناساى فى السافوا العليا ، بل هو يصعد فى خط مستقيم على شريط حديدى معلق فوق أخشاب فى الهواء يعتمد على قواعد متينة فوق الجبل ، ويصعد فى زاوية أكثر من نصف قائمة .
وهو قريب من أنترلاكن يصل إليه الإنسان فى أقل من ربع الساعة سيراً على الأقدام . ذهبنا إليه أصيل الغداة من وصولنا إليها ، فألفينا المحطة فى بناء به ثلاث غرف يصعد الإنسان إليها عشرين درجة أو نحوها ، ومنها دخلنا إلى القطار عجلاته تحت عربته فى مثل المثلث ، ليكون الجلوس فيه مستريحين على مقاعد أفقية . وصعد القطار ، فلم يكن إلا دقائق حتى كنا وإياه معلقين فى الفضاء فوق شريطه ، وحتى كنا ننظر من زجاج نوافذه فلا نرى حولنا إلا فضاء . وبدا على وجه بعض الراكبين نوع من الوجل خيفة أن يهوى وأن نتحطم فوق صخر الجبل . والقطار يسحبه جنزير تديره الكهرباء فيصعد ونصعد معه . فلما كنا عند منتصف الطريق مر بنا القطار الهابط وظللنا نحن فى ارتفاعنا حتى وصلنا القمة ، فسرنا فوقها إلى فندق قريب من المحطة تناول المسافرون فيه فنجاناً من الشاى . لكن الجو ما لبث فيه أن دكن فلم يسمح لنا بمقام طويل فوق هذه القمة . درنا فيها فإذا الطرق الممهدة قليلة ، وكأن الغاية من الصعود إليها أن يحدق الإنسان إلى سلاسل الألب فى الأوبرلاند . ودكنة الجو تحجب بين النظر وهذه الجبال ، فلا خير فى المقام وقد انقطعت السبيل إلى هاته الغاية .
فأما البياتس هوهلن فيثير الدهشة المرتاعة حقًّا . أخذنا إليه الترام عند آخر البلد

المتصل ببحيرة ثون ، وانطلق بنا فى طريق جميل محصور بين شاطئ البحيرة وسفح الجبل حتى وقف بنا فى المحطة التى تؤدى إليه . وتسلقنا الجبل بضع مئات من الأمتار قامت على جانبى طريقها المتعرج فى صعوده أشجار وحشائش ، حتى كنا عند فوهة فى الجبل تخطينا إليها بعد رسم دفعناه ، فإذا بنا فى فوهة مغارة نقرت فى مختلف جوانبها كهوف صورت فيها تماثيل تصف حياة القديس بياتوس التى سميت هذه المغارة باسمه . فترى تمثال هذا الشيخ الطويل اللحية البيضاء وأمامه أدوات ما كان لأهل العصور القديمة . وفى كهف آخر تماثيل أهل العصر الحجرى ، وهلم جرا . وجاء الدليل خارجاً من فوهة المغارة الموغلة فى جوف الجبل يتبعه زوار سبقونا إليها ، وآن لنا أن ندخل بدورنا ، فإذا نحن فى مضيق من الصخر أشبه بأبواب بعض الأهرامات ، وإذا بنا نوغل ثم نوغل فى جوف الجبل وتضىء لنا الكهرباء الطريق نصف إضاءة لا تذهب بالظلمة ولا تذهب بالروعة . وبعد مسير عشر دقائق فى هذه الدهشة الموحشة بدأنا نسمع خرير الماء فى أعماق جوف الجبل ، كأنما انفجر فيه شريان فهو مقبل علينا يكتسحنا. وما هى إلا لحظة حتى كنا نصعد درجاً نعبر بعده على قنطرة من خشب تقينا الماء وفيضانه . ونوغل ثم نوغل يتقدمنا الدليل ونحن آناً نصعد درجا وآناً نهبط درجاً غيره ، وثالثاً نكاد نخطو فى الماء ، وأنوار الكهرباء خلال جوف الجبل قد نظمت ولون بعضها بما يزيد المكان الموهوب مهابة والمدهش دهشة . وكنا نقف فوق قنطرة من الخشب نحدق دونها إلى الماء يتسرب خلال الجبل ، فإذا موقفنا إلى جانب رجل وسيدة سبقانا إلى هذا المكان ثم بقيا لا تنفرج شفاهما عن كلمة إعجاب ؛ لأنهما صنعا من الشمع ووضعا فى هذا المكان العجيب ليزيداه عجباً وإغرابا . ويقص الدليل دقائق المكان مما خلفت العصور البعيدة فى أطوار التاريخ فى الصخر من آثار بعض الأسماك أو الحيوان أو ما يزعم أنه نقر المعتزلة الذين اختاروه مقاماً لهم أيام بياتوس وأتباعه من بعده ، ونحن مأخوذون عن قصصه بعجيب ما حولنا وبموقفنا هذا ، وقد ابتلعنا الجبل فى جوفه كما ابتلع الحوت يونس فى القصص المقدس ، وانشعبت أمامنا المسالك حتى كدنا نضل لولا أن تقدمنا الدليل خلال شعبها . فلما آن لنا أن نخرج من جوف الجبل بقينا فى دهشتنا وذهولنا حتى ركبنا الترام ، ووصلنا إلى الفندق ساعة طعام العشاء .

وكان برنامجنا فى الصباح أن نرتقى اليونج فراو المرتفع أربعة آلاف وثلاثمائة متر فى هذه القطارات الصاعدة التى أنفقت الشركة السويسرية فى إنشائها أكثر من عشرة ملايين فرنك ذهب ، فلما جاء لنا الخادم بطعام الإفطار سألناه عن حالة الجو وهل هو ملائم

أن نصعد ؟ ونحن فى خيفة أن يصيبنا ما أصابنا فى جنيف يوم صعدنا الساليف . فأجابنا بأن السماء محملة بالسحب ، وأن جو أنترلاكن ينذر بأن يكون مطيراً اليوم كله ، وأن التصعيد فى الجبل وفوق السحاب خير ما نتقى به ظلمة اليوم . فلما أخبرناه بخبر الساليف ابتسم ابتسامة معجب باليونج فراو (السيدة الصغيرة) وذكر أن ارتفاعه إلى أضعاف ما يرتفع الساليف يسمو به فوق السحاب وفوق المطر . ولم يكذبنا الرجل ؛ فقد خرجنا وركبنا القطار والمطر يداعب الوجوه مؤذناً بأنه سينهمر بعد ساعة صيبًا هتوناً . وانطلق القطار ماراً بمحطات شتى حتى وصل بنا إلى القطار الصاعد والسحب فى الجو تزداد كل ساعة تراكماً ، وذهب القطار الصاعد يتسلق السفح تارة ويجرى فى بطيح فسيح من الجبل أخرى ، ثم يتسلق ثم يجرى ، وهو كلما ازداد تصعيداً ازدادت السحب من حوله تكاثفاً . حتى كنا فى لجة لا نرى خلالها إلا مثل ما نرى فى لجة ماء البحر إذا أنت غطست فيه . وظللنا كذلك زمناً ، ثم إذا القطار يخترق اللجة فجأة وينفذ منها . فإذا الشمس ساطعة والسماء صفو والجو إبداع، وإذا هذه اللجة تنحدر إلى أسفل منا ، كلما أمعن القطار فى صعوده ، وإذا القمم تتبدى صاعدة من خلالها ممتدة إلى غاية مدى النظر ، حتى لكأنما غرس هذا السحاب كله قمما . ونزلنا من القطار فى البطيح ، وانتقلنا إلى القطار الصاعد إلى قمة اليونج فراو . وما هو إلا أن صعد بنا ثم استدار حتى دخل بنا فى نفق جعل يصعد أثناءه ثم يصعد ويصعد ، ونحن لا نعرف متى ينتهى النفق ولا إلى أى شىء ينتهى : ووقف القطار فى محطة ونزل المسافرون منه فيها بإزاء كهوف فسيحة نقرت فى الجبل ، وينفذ النور من أشباه النوافذ فيها غطيت بالزجاج السميك اتقاء للبرد وأعاصير الطبيعة . وذهبنا إلى أحد هذه الكهوف على مقربة من النافذة ، فإذا المنظر يقع منها على سفوح بيضاء لا يدرك حدودها ، قد كستها الثلوج ثوباً ناصعاً . ووضعت عند هذا الشبه النافذة مناظير مقربة يميلها الناظر إلى حيث شاء ليرى هذا العالم من الثلج الذى تخترق خلاله ، والثلج لا شك يعلو هذا النفق الذى نسير فيه مادام يمتد على ما دونه من قمم وأباطح . وعاود القطار مسيره حتى وقف بنا عند غايته ، فهبطنا منه وصعدنا فى رافع (أسنسير) وقف بنا فى فناء غرفة الطعام دخلنا إليها فإذا هى نقرت فى الجبل : ونسقت أبدع تنسيق ، وفرشت أوثر فراش ، ودفئت وأعدت فيها خير وسائل الراحة ، مما يجعلك وأنت فى قمة من أعلى قمم الألب تجد من الرفاهية ما تجده فى خير الفنادق وإن دفعت ثمنها غالياً . وتناولنا طعام الغداء ، ثم آن لنا أن نتسلق إلى القمة ، وأن نخرج من فوهة النفق المؤدية إليها . يا لجلال الطبيعة وإبداع

قمتها البارع الباهر ! ما كدنا نرتقى الدرجات القليلة ويأخذ الدليل بيدنا ونمسك العصى المدببة لتعاوننا فى سيرنا ، ونسير بضع خطوات ، حتى أحسسنا أن عيوننا تكاد تعشى دون مقاومة لألاء هذا الضياء ترده الثلوج من أشعة الشمس الساطعة . وحاولنا الإمعان فى السير ، فأنذرتنا الثلوج تحت أقدامنا بالتعرض للانزلاق فى كل خطوة نخطوها برغم العصىّ التى نعتمد عليها . وجازفنا مع ذلك وسرنا ، فإذا إلى يميننا قبو نصح أهل المنطقة إلينا بالدخول فيه ، فإذا هو مغارة كلها من الثلج قد مدت الكهرباء داخلها لتنير السبيل لمن يسلكون سبيلهم خلالها . وخرجنا من مغارة الثلج إلى بقعة من القمة كشفت عنها الثلوج وأحيطت بسياج من الخشب يحمى اللاجئين إليها من السقوط فى الوهاد السحيقة المحيطة بها والمكسو بعضها بالثلج ، على حين تجرد بعضها الآخر ، أن ذاب أثناء الصيف ثلجه . وأحاطت بهذه البقعة وهاد وقمم تتالى أمام النظر ، فينتقل من إحداها إلى الأخرى وهو بها وبالثلوج التى تكسوها وبهذا الجو الجبلى المنعش مغتبط أشد اغتباط . وكان الثلج يكسو أقرب الوهاد من بقعتنا ، فيتخذ محبو الرياضة الجبلية طريقهم إليه يسيرون أو يتزلقون فوقه ، ونحن فوق قمتنا وقوف نرقبهم ونزداد بمشاهدتهم غبطة على غبطتنا ومسرة على مسرتنا . وبقينا كذلك حتى آن للقطار أن يعود ، فالتمسنا من جديد فوهة النفق ، ونزلنا على الدرج إلى حيث « الأسنسير » وإلى حيث القطار الذى انحدر بنا خلال النفق حتى انتقلنا منه إلى القطار الثانى الذى ما لبث أن زج بنا من جديد فى لجة السحاب لا سبيل إلى رؤية شىء من خلالها ، وإن هوى بعد ذلك تهتن الأمطار فوقه ، حتى إذا كنا من جديد بأنترلاكن كانت المدينة غرقى بمطر النهار كله ، وكان قضاء الأمسية فى الفندق أمراً لا مفر منه .

وفى ظهر الغد ركبنا القطار إلى لوسرن بعد أن أعد رجال الفندق لنا طعام الغداء نتناوله أثناء الطريق ؛ إذ لم يكن بالقطار عربة للطعام . وأعاد القطار فى تلويه بين بحيرة بيين وبين الجبل صورة مصغرة من المنظر الذى رأينا عند مونتريه . وبلغنا لوسرن فى المساء ، فلما أصبحنا جعلنا ننعم ببحيرتها البديعة الجمال ، وبمنظر جبلى الريجى والبيلات من حولها وبالزوارق تخطر فوق لجها . وشاركنا راكبى هذه الزوارق كما شاركناهم من قبل على بحيرة ليمان . فلما كان الغد أرشدنا دليل « بدكر » إلى غابة أخذنا القطار الصاعد إليها وجعلنا نجوس خلالها ، حتى إذا كانت الظهيرة التمسنا مكاناً نتناول فيه طعام الغداء . ومع أن الدليل ذكر لنا أن بالغابة مطعماً جميلاً ، فقد وقفنا عند بناء خلناه هذا المطعم ولم يكن إياه ، ولم نكن نعلم هذا ! فجعلنا نطوف حوله نلتمس بابه ، فإذا أبوابه موصدة كلها . وإذا بنا نعتقد أن لا سبيل

لنا إلى طعام مادام المطعم مقفلاً . على أن طوافنا هدانا فى جانب منه إلى جوسق من خشب وضعت أمامه موائد ومقاعد ، فحسبناه المطعم . وصفقنا فجاءت امرأة سمينة مفتولة الساعد حمراء الوجه تسألنا بالألمانية ما نريد ؟ وعبثاً حاولنا أن نخاطبها بالإنجليزية أو الفرنسية . فهى لا تعرف غير الألمانية ونحن لا نعرفها ؛ وإذن فلا سبيل إلى تفاهم إلا بالإشارة . وأشرنا إلى أفواهنا علامة أنا نريد أن نأكل ، فجعلت ترطن ونحن لا نفهم . ثم انتهينا إلى أن قامت زوجى معها لترى ما قد يكون من طعام عندها . ثم عادت فذكرت أن غداءنا اليوم بيض ولحم بارد . ومع تفاهة هذا الطعام فقد اغتبطنا به أشد الاغتباط ، وفاض بنا السرور أثناء تناوله ومن بعده . ونعمنا بهذه السعادة التى أحاطت بنا ، كل مقامنا بسويسرا والتى لم تكن فى شيء معين ، بل كانت فى هذا الجو السعيد الصافى الذى يبعث إلى النفس نشاطاً يزيد فيها قوة الحياة فيعلو بها على الضعف وينسيها أحداث الزمن .

وقمنا بعد طعامنا لنطوف بالغابة ، فلم نمض فى السير أكثر من نصف الساعة حتى كنا عند هذا المطعم الذى أشار الدليل إليه . على أن ذلك زادنا غبطة بطعام الجوسق ، وسروراً بنزهتنا الجميلة خلال الغابة الفاتنة .

وفى صبح الغد ركبنا الباخرة على سطح بحيرة المديريات الأربع "Lac des Quatre Cantons" إلى فلولن لنذهب بالقطار منها إلى ميلانو . وجرت الباخرة بنا بين جبال يهز القلب سحر جمالها ويبعث إلى النفس فيضاً من الرضا عن الحياة ينسيها أن فى الحياة همًّا أو شجناً . ورفعت طرفى إلى السماء شاكراً لله أنعمه ، مودعاً جنته على الأرض فى تخشع واعتراف بالجميل لن أنساه ما حييت . وجرى القطار بعد ذلك بنا مخترقاً نفق سمبلون فيما بقى من بلاد سويسرا الإيطالية حتى يصل الحدود التى تفصل بين سويسرا وإيطاليا . عند ذلك انتقلنا من القطار الدولى إلى قطار إيطالى ، ومن بهاء مناطق الجبل إلى سهول لومبارديا وعند ذلك بدأنا نشعر بأنا نقترب من مصر . ولكنا نقترب منها بأرواح جديدة ، ونفوس قوية ، وبحكمة فى الحياة تسمو بنا فوق كل ضعف أمام الحياة .

فى ميلانو

بعد خمسة وعشرين يوماً قضيتها فى أحضان الطبيعة البديعة متنقلا بين جبال السافوا العليا وثلوجها الناصعة البياض وجبال سويسرا الخضراء الزاهرة المطلة على البحيرات الناطقة الجمال بآى السحر الفاتن ، وبعد أن امتلأ ناظرى وقلبى من هذه العظمة التى يشعر الإنسان أمام جمالها البارع وجلالها المهوب بصغره وضعفه – انتقلت فى طريقى إلى تريستا كى أستقل الباخرة حلوان إلى مصر ، وحططت أولى مراحلى بمدينة ميلانو حيث أقمت يومين وبعض يوم . وما كدت أتركها حتى امتلأ فؤادى وعقلى بشعور آخر غير ذلك الشعور الأول ، وحتى جمعت ذاكرتى مما رأت عيناى وسمعت أذناى وفكر فيه عقلى وخالج خيالى صورة أخرى ليست أقل من جلال الطبيعة وهيبتها جلالا ولا هيبة ، تلك صورة مجد الإنسان . وتقاربت الصورتان واقتربتا ، فأذكرتانى أن كل ما فى الوجود من جمال وجلال إنما هو من خلق الإنسان ، وأن الإنسانية كانت ولن تزال صاحبة مجد الحياة فى العالم .

بلغنا ميلانو والشمس تكاد تتهيأ للانحدار إلى مغيبها . فلما اخترنا فندقنا ، ونزعنا عنا غبار السفر ، ونزلنا نرود المدينة ، كان أول ما أخذ بناظرنا بناء فخم لا تحيط به النظرة ولا تستقر العين عند جزء منه حتى تدعوها سائر أجزائه إلى اجتلاء ما تتحدث به من معانى الجمال . واستشرنا الدليل ، فإذا البناء كاتدرائية ميلانو الباهرة البارعة التى استنفدت من جهود رجال الفن أجيالا متعاقبة قبل أن تتم ، والتى تبدو أمامك فى عظمتها وفخامتها كأنها جوهرة لم يدع الجوهرى الصنع منها جانباً إلا صقله وجمّله . فلما كان اليوم الثانى مررنا بها كرة أخرى وقد ألقى النهار على تماثيلها خمس المائة والألفين من نوره ما جلاها لينطق كل منها بما أودعه صائغه من معنى دينى جليل ، ثم دخلناها ، فإذا داخلها أكثر هيبة وأدق صنعاً : ركبت فى كل نوافذها التى تزيد على العشرين ، قطع من زجاج تزيد فى كل واحد على مائتى قطعة ، ونقش على كل قطعة منها صورة تمثل القصص المقدس وحديث المسيحية وأوليائها . وقامت فيها – على حد قول قسيس من قسسها – غابة من عمد من المرمر رفيعة ضخمة دقيقة الصنع أيما دقة . وتوسط الكنيسة قبر سان شارل وضع فيه تابوته من الفضة وحلّى

صدره وأصابعه بما أهدى الملوك لذكرى صاحب الجثة من نفيس الجوهر . وصعدنا إلى أعلى الكنيسة فإذا هذه الدرة الثمينة فى جبين الفن ثمينة حتى فى نظر الذين لم يقفوا على دقائق الفن ، وإذا هى فى تاريخ الفن الإنسانى آية مجد وجلال لا تبلى .

وفى مساء ذلك اليوم ذهبنا إلى سكالا ميلانو ، ولم تكن تمثل فيها أوبرا من الأوبرات ؛ لأن أبوابها موصدة للأوبرا من أبريل إلى نوفمبر . لكنها كانت تصدح موسيقاها بألحان بتهوفن . وفى نفسى لبتهوفن ميل ، بل حب لا أدرى سببه : أهو لفنه ، أم لمصابه فى حياته بالصمم ، أم لأنفته ، أم لإيمانه بواجبه ، أم لكل ذلك جميعاً . وكانوا يوقعون فى هذا المساء لحن الريف (La Symphonie Pastorale) أحب ألحان بتهوفن إلى سمعى . وسكالا ميلانو أفسح مسارح أوربا ، تتسع عند تمثيل الأوبرا لستمائة وثلاثة آلاف سامع . فلما دخلناها ألفينا أهلها وضعوا مكان مسرحها الفسيح مقاعد ، وألفيناها تضيق بالحاضرين قعوداً ووقوفاً حتى ازدادوا عن خمسة آلاف عدًّا ، وليقدرهم مقدرو الحفلات العامة بعشرة آلاف أو يزيدون . وصدحت الموسيقى ، فتطاولت الأعناق وخفتت الأنفاس ، ولم يكن بين هذه الألوف الحاشدة نابس أو هامس . . . وانتهى القسم الأول من اللحن فإذا هذه الصحراء الصامتة من بنى آدم تنفجر بالتصفيق انفجاراً ، وإذا مدير الجوقة يحيى شاكراً فلا تزيد تحيته الحضور إلا إمعاناً فى التصفيق اعترافاً بجميله أن أعاد إلى مسامعهم هذا اللحن المقدس من ألحان بتهوفن العظيم ، وإذا الرءوس تهتز إعجاباً ، والصدور تستنشق فى هوادة وطمأنينة هذا الغذاء الفنى الجميل الذى يسبغ على الحياة نعمتها ، ويجعل لها من القيمة ما تستحق معه أن تحب وأن تخدم بإخلاص وعناية .

ولما انتهى اللحن قلت فى نفسى :

« إن هذه الألوف الحاشدة لتنطلق أكفهم بالتصفيق إعجاباً بهذا اللحن الساحر ، وهو بعدُ حكاية الطبيعة والحياة حكاية دقيقة صادقة . فلحن الريف ليس إلا أهل القرية فى جذلهم يدهمهم الرعد والبرق والمطر وتحيط بهم شدة الطبيعة من كل مكان فينزوون ويبتهلون . فإذا أمسكت السماء وكفها ، وأشرقت الشمس من جديد ، عاد إليهم جذلهم وشكروا أنعم ربهم وزادوه حمداً وتسبيحاً . وما أكثر ما تتكرر هذه الصورة فى الحياة من غير أن تثير إعجاب معجَب أو تصفيق مصفق . لكن جمع بتهوفن إياها وسوقه لها فى صورة من الفن دقيقة هو مثار الإعجاب . فأى العنصرين أقوى : بتهوفن أم الطبيعة ؟ وإذا كان الإنسان هو الأقوى أليس هذا مجداً له ليس يعدله مجد ؟ ! .

« ومن الحاضرين من ليسوا فى الفن ذوى دقة ، ومع ذلك مرت بهم نغمات أخذت منهم بشغاف القلب ومجامع الفؤاد ، وأثارت مسرتهم بمثل ما تثير الكلمات القليلة التى يعرف الطفل كيف يقرؤها فى مقال طويل زهوه ومسرته . أليس معنى هذا أننا كلما ازددنا لما فى الحياة إدراكاً ازددنا للحياة حباً وكنا لها أدق تقديراً ؟ . فإذا أحاط الإنسان بها من جانب الفن أو من جانب العلم خلق فيها جديداً يزيدها حياة ويزيده مجداً » .

وأوقع الموسيقيون لحناً آخر من ألحان بتهوفن فيه من حكاية الطبيعة بعض ما فى لحن الريف ، فأعانني ذلك على متابعة ما أفكر فيه ، ودارت بنفسى خواطر لم تقف عند بتهوفن وألحانه ، زادتنى كلها إيماناً بأن الإنسان إن كان بعض ما فى الوجود وكان بعضاً قليلا فهو لا شك خالق مجد الحياة ، وأن خياله كان فى هذا الخلق أوفر حظاً من عقله ، أو أن عقله وخياله تعاونا فى هذا الخلق ، فكان من تعاونهما نعيم الحياة الذى يزداد كل يوم بما يزيدها خلقاً وإيجاداً .

وما جمال الطبيعة وما نعيمها لو لم يتغن بهما الشعراء ويلحنهما الموسيقيون ويصفهما الكتاب ويقيم لهما المثالون التماثيل ويفتنُّ العلماء فى بيان دقائقهما واستنباط سننهما ؟ كيف نرى التجاوب والاتساق فى الجبال والبحار وفى العاصفة المقوضة وفى المطر الهاتن يفر منه كل إلى وكره ، لو لم يجتمع ذلك كله فى خيال خصب كخيال بتهوفن ، فيهضمه ويسيغه ويلحنه فى لحن الريف البديع ، أو كخيال روسو أو بيرون أو رفايل أو غير هؤلاء من رجال الفن الخالقين الذين يلبسونه من ثوب الفن ما يصل به إلى كل حس وكل قلب ، فيطبع فيه ما شعر به الفنان من جمال فأنشأه إنشاء وخلقه خلقاً ! ! أو ليس هذا التجاوب والاتساق هو جمال الحياة وزينتها ؟ فالذين خلقوه هم الذين خلقوا جمال الحياة ، وهم لذلك أصحاب مجد الحياة فى العالم .

بل إن ألحان بتهوفن وقصائد بيرون وكتب روسو وصور رفايل وفلسفة أفلاطون ومخلفات كل فنان وكل عالم ، لآثار خالدة هى ما للإنسان فى الحياة من مجد وجلال . وإذا كانت جبال الألب المهوبة الخالدة العظمة والجلال تمتع اللب والخيال بعظمتها وامتدادها واختلاف مظاهرها وصورها ، فإن كتدرائية ميلانو وحدها لا تقل عن جبال الألب كلها إمتاعاً للعقل والخيال بكل معانى العظمة والقوة والجلال والجمال . بل لعلها أكثر منها إمتاعاً وأبقى فى النفس أثراً . فإنك كلما وقفت تشهد نقوشها وتماثيلها وعمارتها رأيت فى كل قطعة منها ، بالغاً ما بلغ صغرها ، ما أراد صانعها أن تحمل من أسرار ومعان . فإذا أنت خلوت

إلى نفسك وتمثلت هذه الجوهرة النفيسة من جواهر الفن وأردت استكناه دقائق أسرارها ومعانيها ، رأيت أمام بصرك خلقاً عظيماً كثير الأسرار جم المعانى ، فآمنت بمجد أصحابه وبأنهم هم الذين جعلوا للحياة قيمتها .

وموسيقى بتهوفن ، وكتدرائية ميلانو ، وآثار من ذكرنا من الفنانين فى الشعر والأدب والتصوير ، كل ذلك ليس إلا قطرة من هذا المجد الذى يبدأ مع الإنسان منذ كان الإنسان ، والذى سيظل زينة الحياة ما بقيت الحياة . ما بالك بما خلفت حضارة مصر وآشور واليونان والرومان والمسلمين وبما تقيمه حضارة هذا العصر الذى نعيش فيه ! وهل مما فى الوجود شىء لم تصقله هذه الحضارات ولم تخلع عليه الطابع الذى له اليوم ؟ بل هل فى الوجود فكرة ليس الخيال الإنسانى خالقها ؟ ! فإذا كان هذا عمل الإنسان فما جلال الطبيعة وما عظمتها أمام مجده الخالد الذى لا يبلى ! وما جلال الطبيعة وما عظمتها إلا بعض خلق الإنسان فيما خلق من صور الفن وآى العلم .

* * *

وردت هذه الخواطر إلى خيالى وتمكنت من نفسى على أثر ما شهدته فى سكالا ميلانو ، ففتحت أمامى عالماً جديداً من عوالم التفكير واسع المدى . وكم كان يسعدنى أن أظل فى أحضانه أجتلى من آثار هذا المجد الخالد ما فيه نعمة الحياة . لكنى رأيت فى جانب آخر من ميلانو ما بعث إلى نفسى لوناً من التفكير كالذى بعثته الكتدرائية والأسكالا ، وإن يكن من نوع آخر . هذا الجانب الآخر هو مقبرة ميلانو ؛ فهى تصور صورة من مجد الإنسان ليست دون ما يصوره غيرها من خالد آثاره . لكن إحساسنا فيها كان متأثراً بشعورنا ، حتى كاد يحرك لاذع الألم فى نفوسنا . وما أحسبنا وحدنا الذين تثير المقابر هذا الإحساس عندهم ، بل لعله إحساس الناس جميعاً . فهم ونحن جميعاً تشتد للمقابر رهبتنا ويشتد إليها هُوِيُّنا ؛ نرهبها لأنها المثوى الذى نحمل إليه غير مختارين ، ونهوى إليها لأنها مثوى الأعزة وفلذات الأكباد ، ولأنها مستقر تاريخ الإنسانية الذى أورثنا من آثاره ما زادنا على الحياة سلطاناً ولها حبًّا . لذلك تهوى أفئدتنا إلى المقابر فى خشوع ورهبة . فإذا اشتملنا سكونها المهيب تنازعت نفوسنا عوامل الإجلال والمخافة ، والرجاء واليأس ، ما لم تنحدر بنا عواطفنا فى وهاد الحزن والألم فتنسينا ظلماتها الموحشة ما سواها من العواطف والإحساسات .

وللمقابر على الأحياء سحر لا يقل عن سحر الحياة إياهم ؛ فهم يؤمونها وإن اختلفت

طوائفهم وتفاوتت مداركهم وانشعبت فى زيارتها أغراضهم . وليست مقابر أعزتهم هى وحدها التى تسحرهم ، بل هم يهوون إليها جميعاً وكأنما يردد عندها كل منهم فى غور نفسه وقرارة فؤاده قول الشاعر :

وقال أتبكى كل قبر رأيتــــه لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له إن الشجا يبعث الشجــا فدعنى فهــذا كله قبر مــالك

وكأنما يجد كل منهم سر الحياة ومعنى الوجود دفيناً فى كل قبر . فالمرأة الساذجة الذاهبة تستندى سر الصالحين وتستجدى بركتهم ، والمنحدر فى وادى الملوك إلى مقابر الفراعنة يستشف خلال ألوف سنين مضت عظمة الأزمان الغابرة ، والسائر فى بانثيون باريس يطوف بقبور الكتاب والشعراء والفلاسفة الذين طواهم البلى فخلدوا برغمه على وجه الزمان ، والضارب فى صحراء القاهرة بين مقابر مجهولة ، أولئك وغيرهم تدعوهم المقابر إليها فيلبون الدعاء ، وإن اختلف ما يصورونه لأنفسهم من غاية فى إجابته . فإذا مثلوا فى حضرة الموت رأوا كيف يستجن فى الموت سر الحياة ، فالتمست الساذجة من قبر الصالح الصحة والحب والسعادة ، والتمس المنحدر فى وادى الملوك إلى قبر الفرعون أسباب العظمة والمجد ، والسائر فى بانثيون باريس إلى قبور الفلاسفة والكتاب أسباب الحكمة والخلود ، والتمس الضارب بين المقابر سر الحياة الدفين فيها .

وأين يلتمس الناس سر الحياة إن لم يلتمسوه فى الموت وهو غاية الحياة ومدى ما يصل إليه علمهم منها ! أو لم ينفق كثير من المفكرين والفلاسفة أعمارهم فى استكناه ما بعد الموت ؟ والمقابر دور الموت ، كما أن المنازل دور الحياة .

وهذه العواطف المختلفة التى تختلج فى نفوسنا ساعة زيارة المقابر هى التى أدت بالناس منذ ألوف السنين إلى أن يجعلوا منها قصوراً فخمة تتجلى فيها المعانى التى جالت بنفوس الأحياء ممن بنوها . وما تزال أمم كثيرة تجعل من المقابر صلة الحياة بما بعد الحياة ، وتسعى لتجعل مقابرها زينة للناظرين ، فتجمل لهم الموت كما جملت الحياة . وإنك لترى من بدائع الفن فى بعض المقابر ما تقف أمامه معجباً به برغم ما يمثله من عواطف محزونة وقلوب كسيرة وأفئدة جريحة . والذين زاروا « جنوا » فى إيطاليا يذكرون أن ليس فيها من آثار الفن غير مقبرتها . ومقبرة ميلانو هى أيضاً متحف من متاحف الفن ، إن لم تبلغ كتدرائيتها فى العظمة ولم تبلغ بعض آثارها الأخرى فى الجلال فهى ولا ريب أشد ما فى ميلانو من الآثار رهبة ، وأنفذها إلى النفس معنى .

زرناها فى ثامن أكتوبر سنة ١٩٢٦ ، وكان يوماً غائماً لم تبزغ منذ صباحه شمسه ، وظل رذاذه يداعب السائرين فى الطرقات حيناً بعد حين . ووصل بنا الترام فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر إلى أبواب المقبرة ، فإذا بائعو الأزهار وبائعاتها انتحوا من الطريق جانباً ، وإذا رجال وسـيدات وفتيـات يبتـاعون ما تنتعش له نفوس أعزائهم فى وحدة القبر . ونظرت نحو المقبرة فإذا فناء فسيح شيد على جوانبه الثلاثة بناء فخم ويفصل بينه وبين الميدان سياج من عمد الحديد ، فتخطينا السياج ووقفنا هنيهة نحدق فى صدر الفناء إلى هذه العمد الرفيعة والأقواس فوقها ، تحسبها عمد القصور وأقواسها . ومن فوق هذه العمد والأقواس التى تؤدى إلى منازل الدار الآخرة شيد طابق ثان فيه عمد وأقواس ، وفيه محاريب وتماثيل ، وفيه صناديق كبيرة من حجر هى مثوى أصحاب التماثيل القائمة إلى جانبها . وأدرنا النظر يسرة فألفينا بواب هذه المقابر واقفاً على باب غرفته عرضت فى زجاجها كتب هى دليل المقبرة وما فيها من تماثيل وأنصاب . فسرنا إليه نسأله : أيتقاضى من زائرى هذه المقابر أجراً غير ثمن الدليل ؟ قال : إنما الأجر لمن يزور المقابر ، وكل ما عليه أن يضرع عند الله لأهلها بدعوة صالحة .

سرنا فى الفناء محاذين هذا الجناح الأيسر من سراى المدخل ، فأخذ بنظرنا فيه باب نزلنا عنده خطوة ، فإذا حولنا صناديق الحجر وتماثيل من احتوت الصناديق رفاتهم صنعت من المرمر صنعاً دقيقاً ، ووضعت إلى جوانبها شواهد من المرمر كذلك ، نقش عليها اسم صاحب التمثال ورجاء مغفرة من الله له . ويلى هذه الغرفة الضيقة دهليز أفقى طويل صفت المقابر عن جانبيه . ويشعر الإنسان فى هذا المكان المسقوف الضيق بين هذه المقابر الكثيرة بشىء أقرب إلى الفزع منه إلى الرهبة ، ويخيل إليه كأن ساعة الحشر دانية ، ولا يجتلى جمال التماثيل ولا حلاوة الأزهار الملقاة على أقدامها وحول الشواهد المستغفرة لها بسبب هذا الفزع إلا قليلا .

وعدنا إلى الفناء وتخطينا بين العمد وتحت الأقواس إلى رحب المقبرة ، فإذا بنا فى ميدان فسيح يزيد على خمسين فداناً ، وإذا هذا الميدان حديقة ناضرة ، نثرت فيها التماثيل على اختلاف صورها وأحجامها ، وإذا بك يزايلك الفزع مخافة ساعة الحشر الدانية ، وتطمئن نفسك إلى هذه الخضرة الباسمة وإلى الأزهار مختلفاً ألوانها ، وإلى الأنصاب الرفيـعة وقفت أو تمطت فى حناياها وإلى جانبها ومن حولها تماثيل آية فى الدقة . إذ ذاك تسائل نفسك : أهذه هى المقبرة التى تكن فى جوفها رفات أعزة تدمى لذكرهم قلوب وتذوب

أكباد وتغوص فى لجج الهم نفوس وأفئدة ؟ ياما أعجب نظر هؤلاء الناس إلى العيش ! وما أشدهم حرصاً على المتاع بكل لحظة من لحظاته ! ها هم أولاء قد جعلوا من منازل الموت زينة للحياة ومتاعاً لعيون الأحياء . ولعل أولئك الذين يحملون الورود والرياحين إلى القبور إنما يريدون أن يزيدوا جمال هذا المتحف الذى تفتخر به ميلانو وتجعله فى حياتها عنوان عز ومجد .

ولكن هذه الخواطر التى مرت بالذهن عندما تخطينا إلى رحب المقبرة لم تلبث إلا يسيراً حتى أذابتها حسرات نفذت إلى شغاف النفس مما تنطق به التماثيل فى نظراتها المحزونة ، وفى دمعات هامية من عيونها الحجرية على خدودها ، وفى هذا التخشع والانكسار والاستسلام لجبروت الموت القاسى . وأكثر هذه المعانى المحزونة أثراً فى النفس ما جاور قبوراً أغلب الظن أن أصحابها ليسوا أغنياء . لا تعجب ! إن هذه المقابر التى يدور فى ظن الناس جميعاً أن أصحابها يرقدون فيها على بساط عدل ومساواة ، يتفاوت أصحابها أمام أهليهم وأمام الناس فى قدر ما كانوا وما صنعوا وما يستحقون من ذكر وأسى . فهذا القبر الذى عن يميننا عطل من كل تمثال ، واكتفى أهله بشاهد توسطته صورة الشيخين الراقدين فيه . وهذا القبر الثانى إلى جانبه جلس إليه تمثال حسناء مرسل شعرها على ظهرها وصدرها فى غير نظام ، وقد بلغ منها الحزن مدى اليأس ، فألقت بذراعيها فوق القبر ، كأنما كانت تريد أن تنزع منه صاحبه المحبوب لتعيد إليه الحياة ، فإذا أملها هباء وذراعاها ملقيتان فى عجز واستسلام ، وإذا هى لا تملك غير دمع فياض وقلب متحطم . فأما ذلك النصب العالى إلى يسارنا فيتوسطه تمثال أبى الأسرة المدفونة تحته ، وأحاطت به تماثيل نسوة ارتسم على وجوههن جمال الألم من غير أن تشوهه لذعات الحسرة .

وسرنا فى طرق حديقة الموت ومتحفه ، وما نكاد نخطو حتى تستوقفنا المعانى المختلفة تعبر بها التماثيل عما تكنه نفوس الأحياء من جزع أمام الموت ، أو ألم لفراق عزيز ذاهب ، أو فخر برجل عمر وترك وراءه ذكراً يحسبه ذووه باقياً . ثم وقفنا أمام قبر جثا فوقه تمثال طفل يصلى . يا رعاك الله يا صبى ! على من تبكى ولمن تستغفر ؟ ! من ذا أخرجك من براءتك وطهرك ، ودس إلى قلبك الصغير ما فى الحياة من هموم الألم وسمومه ؟ ! أتصلى لأمك الشابة الصبوح ظلت مطوقة إياك بذراعيها حتى أثلجهما الموت وهى الآن تراب طهور يبعث لك فى الحياة من الذكرى ما يغسل حوبات الحياة ؟ ! أم هو أخ لك طفل مثلك شعرت بالوحشة لفراقه فجئت تدعوه إليك يؤنس وحشتك ويسلى هم وحدتك ؟ أم لعلك أنت أيهذا

التمثال تمثال الوحيد العزيز الراقد طى الثرى ؟ ! ادع أيها الحجر الصامت صاحبك وأطل الدعاء ! . . أواه إنه لن يجيبك ، وإنك لن تظفر من دعائك إلا بدموع كأنها الحمم تفرى أكباداً جرحى وقلوباً كليمة ، وتدك عزائم كانت أمام ما فى الحياة أطواداً كالجبال ، ثم إذا الحياة أمامها سراب خادع ليس فيه من حقيقة إلا الدمع وإلا الألم .

واستغفرنا الله عما صنع بالصبي الراقد هناك فى صحراء القاهرة ، وأسرعنا إلى جانب آخر من جوانب المقبرة الفسيحة . وكأنما شعر السحاب بهمنا فبعث من عنده رذاذاً أطفأ ما التهبت به نفوسنا ودعانا لنحتمى بجدار قريب . وكان على مقربة من الجدار قبر جلس إليه مثّال ينقر فى الصخر موضعاً لمصباح وضعه أهل القبر ليضيء ظلمته . ثم صعدنا درجاً إلى جانب الجدار ، فإذا صناديق من حجر وتماثيل وشواهد نقشت عليها أسماء أصحابها وكأنها تزدهى بمقامها فى هذا المقام الأعلى . وسرحنا البصر فى المقبرة فلم نحط بغايتها . وخشينا أن تقع العين على مثل تمثال ذلك الطفل ، فسرنا فى الطابق الثانى صوب باب المقبرة بين صناديق وتماثيل وشواهد كلها لقوم نعموا فى الحياة بحظ يبعث إلى النفس الغبطة ولا يحز الفؤاد بلذع الألم .

وخرجنا فخفف عن النفس ما أحاط بنا من ضجة الحياة .

* * *

وذكرت مقبرة ميلانو وتماثيلها وأنصابها وشواهدها يوم ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٦ إذ كنا نجوب صحراء القاهرة نؤدى للصبي الراقد فى مقابرها فرض الذكرى ، وندع عنده قطعتين من فؤادينا الكليمين ، لعلهما أروح لثراه من الورد والزهر . أيهما أبلغ بحديث الموت وعظمته : تلك الجنة فى ميلانو ، أم هذه الصحراء المنقطعة تسرى فيها الأرواح بعيدة عن معانى الحياة الأرضية الوضيعه وإن جسمتها التماثيل ما جسمتها ، وإن جلت عن صفائح الحجر وجنادله من معانى الألم والرهبة والجلال ما جلت ؟ وأيهما أبقى فى النفس أثراً : هذا التمثال من الحجر تراه اليوم وتراه غداً وتراه بعد سنين فإذا عواطفه لا تتجدد ، وإذا عينه الدامعة لا تجمد دمعتها وعينه الجامدة لا تجود بدمعة ، أم هذه الدمعة الحية الحارة التى انسكبت بمرأى منك ومشهد ثم دخلت منك فى عالم الذكرى المتجدد ما تجددت حياتك ؟ قد تكون الدمعة الحية أبقى فى نفسك أثراً . لكنك أنت زائل كما زالت الدمعة التى رأيتها أنت وحدك . أما هذا التمثال من الحجر فقد تجسدت فيه عاطفة من العواطف هو عليها شهيد لكل من رآه ، وهو أبقى منك على الحياة وأبقى مما تسطره .

ومرت بمخيلتى إذ ذاك صورة من هذه العواطف المحزونة أثارها الألم المبرح زمنا ، ثم ما زالت بها الحياة حتى استترت فى قلوب أصحابها وصاحباتها تثيرها الأحداث وتكظمها المظاهر ، وحتى انطوت فى عالم الذكرى عند من شهدوها ومن شغلوا عنها من بعد بلهو الحياة . مرت فى مخيلتى صورة الجدة العجوز فقدت ابنها الوحيد بين بنات سبع ، ثم فقدت حفيدها الوحيد كذلك من هذا الابن ، فابيضت عيناها من الحزن حتى لا ترى هذه الآلام المكدسة حولها تنم عنها نظرات بناتها وتنطق بها حال حفيدتها . ومرت صورة هذه الشابة الذاهلة المنهدة فى سوادها بين قبرين : قبر أمها الشابة وقبر وحيدها الصغير ، وأعمار الثلاثة ما تزيد على عمر شخص واحد يبكيه الناس أن ما يزال فى الحياة له مطمع ، وهى فى مقامها هذا خرج بها اليأس عن أن تجد حتى فى الدمع عزاء . وصورة أم ذات ولدين انفصل عنها أبوهما زمناً ثم عاد إليهم وما كاد حتى اختطف الموت الاثنين جميعاً فى عشرة أيام . وصورة . . . لكنى ما كدت أبدأ أستعرض هذه الصور الحية ما تزال ، وأتخيلها مصوغة فى نحو تماثيل مقبرة ميلانو حتى هجم علىّ خيال برج هائل من الآلام الإنسانية مكدسة بعضها فوق بعض وهى تدمى دموعاً سخينة وقلوباً حرَّى وأفئدة مصدوعة وأكباداً مكلومة ، وفى كل قطرة من هذه الدماء تمثال ناطق بمعان تنفطر لها النفوس وتتعذب لمشهدها الأرواح .

وفزعت لهذا المنظر ، وجاهدت كى أمحوه من أمامى ، فعدت إلى نفسى أحتمى بها من هول ما تلقى الإنسانية . وليس كالنفس حصن إليه يفزع العقل والخيال يدّرعان به من خطوب الوجود . وساءلت : أليس فى الحياة إلى جانب هذه الصور الرهيب منظرها صور ذات بهجة ؟ أو ليس إلى جانب الحزن مسرة وإلى جانب الألم أمل ؟ إن الذين تدهمهم الهموم يجدون عنها فى حكمة الحياة وفى لهوها عزاء . والحكمة أبلغ فى عزائها . ومن الحكمة ألا نرى فى الموت إلا طوراً من أطوار الوجود كالحياة سواء . أترى أنا لم نكن جزءًا من الوجود قبل أن نكون أناساً مثلما نحن فى الوجود أناس ؟ ! بلى ! كنا فى الوجود مثلما نحن فيه وإذا كانت مشاغلنا فى هذا الطور تحول دون أن نعرف ما سواه مما مررنا وسنمر به ، فليس ذلك إلا لأنا نتوهم أنفسنا قطب الوجود ودائرة مركزه . ولو أنا عدلنا فى النظر إلى الكائنات جميعاً لرأينا أنفسنا ذرة منها تستحيل فى شتى الصور ، ونحسب استحالتها وانتقالها فناء وموتاً . والمقابر على ذلك أعدل شاهد . فلو أن مقابر من ماتوا من يوم وجدت الإنسانية على الأرض ظلت مقابر ، لما وجد الأحياء لأنفسهم على وجه الأرض سكناً . لكن المقابر استحالت حياة فى صور وألوان شتى . ونحن الأحياء على صغر كمنا وقدرنا نستحيل كل يوم

أحياء جديدة ، ونحيل غيرنا إلى ألوان من الحياة أو – إن شئت – من صور الوجود .

ما لنا إذن نجزع من الموت ونهابه ؟ أم نحن فى الحق لا نجزع منه لأنفسنا ، وإنما نجزع لما يحول بيننا وبين ما اعتدناه وألفناه ؟ والحياة وكل ما فيها عادة . ولعل سائر صور الوجود عادة كالحياة الإنسانية . ولعل للنبات وللجماد نوعاً من الحس بالحياة إن اختلف عن حسنا بها فهو أوفر عقلا وأسمى حكمة . وهذه الحيوانات الأخرى التى تتشابه وإيانا فى نوع الحس بالوجود ، لها من سليقتها ما يبعد بها عن الألم ، فهى لا تشعر به إلا إذا أصابها ما يسببه . فإذا انقضى عادت إلى مرحها فى الحياة ومتاعها بها ، ولم تخلق لنفسها ما نسميه نحن عالم الذكرى نملؤه بالصور المثيرة للحزن والشجن .

ولعل هذا المعنى هو ما دفع أهل الغرب إلى أن يجعلوا من مقابرهم جنات ، ولأسباب آلامهم تماثيل محسوسة ، حتى إذا اعتادوا رؤيتها أنسوا إليها وارتبط بها خيالهم ، فلم يخلق لهم كل يوم سبباً للحزن والألم جديداً . فأما الحكيم الذى يؤمن بأنه بعض ذرات الوجود ، سواء استوى إنساناً أو انشعبت خلاياه فى نواح عدة ، فليس فى حاجة إلى تمثال يأنس به ، بل تهديه حكمته إلى تجنب أسباب الألم ما استطاع ، ليبقى له فى الحياة المرح والمتاع .

فى البندقية

البندقية ! اسم ساحر جذاب لهاته المدينة التى أنبتها الماء ، كما ينبت الصخر والشجر ، وأنبتها فوق سبع عشرة ومائة جزيرة لا تتصل بغيرها من المدائن ، وليس فيها غير الماء وسيلة للنقل بين بعض جزرها والبعض الآخر مما جعل أهلها فى عزلة تميزهم من غيرهم ؛ وهى مع ذلك مهبط فن جميل يرجع فى تاريخه إلى عصور قديمة كانت البندقية فيها ذات تاريخ مجيد فى التجارة وفى الحضارة وفى السلطان ، وكانت مرفأ من أكبر مرافئ بحر الروم ومن أشدها منعة وقوة .

لذلك كانت البندقية وما تزال ساحرة جذابة تهوى إليها الأفئدة وتود أن تستمتع بها الأعين . وقلّ أن لم يقصد إليها مسافر فى إيطاليا . بل هى وجهة كثيرين يقصدون إليها من أقاصى العالم يشهدون فيها عظمة الماضى وسلطان الطبيعة وجمال الحاضر ، ويشهدون فيها صناعات بديعة دقيقة إن وجدت فى غيرها فهى لا توجد بهذا الإبداع ولا بهذه الدقة .

ولقد قصدت زيارتها عام ١٩١١ أثناء عودتى من باريس إلى مصر عن طريق سويسرا وإيطاليا . وكنت يومئذ فى آمال الصبا وزهو الحياة ، أحسب ما فى الحياة ملكاً لى أصرّفه أكثر مما يصرفنى ، وأنال منه أكثر مما ينال منى . لذلك كفانى أن علمت وأنا بميلانو أن مياه الشرب مقطوعة من البندقية ، وأنها قد تظل كذلك أياماً حتى عدلت عن زيارة المدينة الظمأى ناسياً أو متناسياً أن فيما قد يجلب إليها من المياه المعدنية وغير المياه المعدنية ما لا يذر إنساناً ظمئاً . ومالى أزور مدينة ينقصها بعض أدوات الحياة مما قد أكون إليه بحاجة ، أو مما قد يعجبنى أن أحتاج إليه ! ولم أكن فى هذه السن قدرت مبلغ ضآلة الإنسان فى الحياة وخضوعه لها ، ومبلغ قصر الحياة وسرعة مرها . لقد كنت معتزماً العودة إلى أوربا لإتمام دراستى بعد أشهر أقضيها بمصر . وبعد أشهر تكون أنابيب ماء البندقية أصلحت ، فلأعدل إليها فى طريقى يومئذ فى غير خشية ألا أجد ما قد يعجبنى أو أحتاج إليه .

وعدت فى أواخر سنة ١٩١١ إلى باريس ، ولكن من طريق مارسليا . وأتممت ما ذهبت إليه وعدت إلى مصر فى سنة ١٩١٢ ولكن من طريق مارسيليا كذلك . وغامرت فى ميدان الحياة . ثم ما هى إلا أشهر معدودة ، ما هى إلا سنة ١٩١٤ حتى أعلنت الحرب بين دول

أوربا ، وحتى صار الذهاب، إلى أوربا محفوفاً بالمصاعب . وشهدت البندقية من آثار الحرب ما شهدت غيرها من المدائن أو أشد من بعض المدائن هولا . ثم كانت الهدنة فالصلح فالحركة المصرية فالمشاغل التى تخضع الإنسان للحياة غير مختار . فلما قصدت إلى أوربا ألتمس فى ربوعها الجميلة مصحاً أستشفى أنا وزوجى فيه من مصابنا زرت المدائن والأماكن التى عرفت شاباً والتى شهدتنى وحيداً سعيداً بوحدتى مملوءاً بقوة الأمل فى الحياة والتسلط عليها ، فإذا بها تشهدنى وقد تركت فى نفسى كلوماً إن لم تضعضع من أملى وقوتى فقد خلطته من المرارة بما لم أكن أعرف فى بدء الصبا وفى ميعة الشباب ، إلا أن يكون ذلك حباً فى أن أستمتع من الحياة بكل ما فيها من حلو يغيب عن الشباب رحيق حلاوته ، ومن مر إن عرف الشباب لون مرارته فقد غاب عنه طعمه .

وكنت فى هذه المرة شديد الحرص على أن أرى البندقية ولو انقطعت عنها مياه الشرب وفتك بالناس فيها الظمأ . وفيما يجرى بنا القطار من ميلانو إليها عاودتنى فى ابتسامة ذكرى سنة ١٩١١ . وهل تعاود الإنسان ذكرى الشباب فى غير ابتسام ! وإن إخفاقاً فى الشباب تغاليه فتغلبه لأكثر ابتساماً من مجد تنظر من عليائه إلى الحياة فلا ترى بعده إلا منحدراً . فلما تخطى القطار اليابسة فوق الجسر الذى يفصل القارة عن المدينة الجزيرة ، انفسحت عن يميننا ويسارنا آفاق الماء المختلط عندها بالسماء ، وشعرنا بالبندقية تقترب ، وتصور الذهن « الجندولا » زورق البندقية ، وعادت إليه ذكريات ما سمع وقرأ عن كنيسة سان مارك وميدانها وعن قصورها الفخمة وعن شوارعها وطرقها المائية كلها والتى تخطر فيها الجندولات ذاهبات آيبات .

فى أى فندق تنزل ؟ هذا هو السؤال الذى يرد إلى خاطر المسافر أول ما يقترب من مدينة يريد أن يحط فيها رحاله . وذكرت إذ ذاك حديثاً جرى بيننا وبين بعض أصحابنا فى لندن ومنهم من كان قنصل مصر فى تريستا وزوجه . وقد تناول الحديث البندقية وآثارها . فلما عرفت زوج القنصل أنا قد نزور البندقية أشارت من بين آثارها إلى قصر قديم أصبح فندقاً باسم دانيلى ، ووصفت ما فيه من زخرف العمارة وصفاً مشوقاً ، فما لبثنا حين خرجنا من فناء المحطة وأحاط بنا رجال الفنادق أن نادينا برجل « دانيلى » ناولناه متاعنا فوضعه فى جوندلته ، ثم أعاننا حتى نزلنا إليها ودفع بها فى القنال الكبير الذى يقسم المدينة شطرين كما يقسم السين باريس والتيمس لندن ، وكما سيقسم النيل القاهرة عما قريب .

تحل الجندولا فى البندقية محل العربة فى سائر المدائن ، وكما جنت الأوتموبيلات والتراموايات ووسائل النقل الميكانيكى على العربات بجيادها المطهمة ، فقد بدأت الزوارق البخارية والسفن البخارية الكبيرة تجنى على الجندولات فى البندقية ، وإن كان أهلها لا يزالون حريصين على الاحتفاظ بها احتفاظاً بطابع قومى كان رمزاً لهم كما يرمز لمصر ببعض آلهتها القومية . لكن الحضارة الحاضرة تجنى على الآلهة وتجنى على العربات والجندولات فى غير رحمة باسم التقدم والعلم . لذلك بدأت الجندولات الفاخرة تختفى وتحل الزوارق البخارية الجميلة السريعة محلها ، ولم تبق إلا الجندولات العادية المعدة للإيجار وبعض جندولات احتفظ بها أصحابها أثراً نفيساً من آثار الماضى .

وتمتاز الجندولات على غيرها من الزوارق بأنها سوداء اللون طويلة ضيقة ترتفع على مقدمها ومؤخرها عمد من خشب مزخرف ينتهى باستدارة مستعرضة كأنها رأس الأفعى الحارس الذى يرسم على قبور قدماء المصريين . ومجاديف الجندولا ليست متصلة بها بل يمسكها النوتى بيده ويعتمد على التجديف بها على جانب الزورق . وأهل البندقية صغاراً وكباراً ذوو مهارة فى تسيير جندولاتهم وفى تفادى تصادم بعضها ببعض فى أضيق الطرق وفى أحرج المنعرجات .

وسارت بنا الجندولا فى القنال الكبير تقوم على شاطئيه قصور قديمة كما تقوم أيضاً منازل قديمة ، حتى كنا عند جسر ريالتو يتخطى الناس القنال الكبير فوقه . وجسر ريالتو أو كبرى ريالتو واحد من أكبر جسور البندقية الكثيرة التى تعد بالمئات . وجسور البندقية — إلا الصغير منها — عقود مقوسة من الحجر مما يضطر الناس إلى الصعود فوقها بدرج ثم النزول إلى الشاطئ الآخر بدرج كذلك . فأما جسر ريالتو فله من الامتياز على ذلك أنه محاط من جانبيه بعمد مزخرفة عقد فوقها جسر آخر لا يرتفع إليه أحد . ومن بعد هذا الجسر بقليل استدارت بنا الجندولا فى طرقات ضيقة اختصاراً للطريق . وفى هذه الطرق الضيقة يتنادى المجدفون عند كل منعرج بصوت منغم لحرفى « هو » كما ينبه سائقو الأوتموبيلات بنفيرهم عند كل انحراف أو تقاطع فى الطرق والشوارع .

ووصلنا « دانيلى » وارتقينا من الجندولا إلى سلمه النازل فى الماء ، واخترنا غرفتنا : إنه لقصر منيف . وهو قصر من طراز القصور القديمة ، صنع أكثره من المرمر ، وزينت نوافذه بزجاج ملون كزجاج الكنائس وبعض المساجد . يقابل الداخل من الباب بهو متسع يفضى إلى غرفة استقبال أكثر من البهو سعة وأدق عمارة . ولم نطل المكث فيه ساعة وصولنا ، بل

ما كدنا نزيل عنا غبار السفر حتى خرجنا والنهار فى أخرياته نجتلى منظر الأدرياتيك ، ونرى بعيداً عن كبرى جزائر البندقية جزراً أخرى منثورة تقوم فوق بعضها كنائس تظهر للنظر قبابها ، وتبدو على البعض الآخر مساكن لا تستثير تطلع الناظر إليها . واستدرنا إلى يميننا وتخطينا جسرين بنيا أمام قصور أمراء البندقية الأقدمين ، وانعطفنا يسرة فإذا بنا أمام ميدان سان مارك .

سان مارك ! الكنيسة الفخمة القديمة ، فخر البندقية وفخر العمارة البيزنطية ! وأمامها ميدانها العظيم تحيط به من جوانبه الثلاثة الأخرى عمارات فخمة كانت قصور الأمراء فى الماضى ، ثم أنزلتها الديمقراطية فجعلت منها قهوات وحوانيت بقيت أميرة قهوات البندقية وأميرة حوانيتها . وبإزاء الكنيسة عمد ثلاثة من المرمر الأحمر الدقيق ، وعلى مقربة منها إلى يمين الناظر إلى الكنيسة برج البندقية (Campanile) وإلى يسارها برج الساعة . ونسيت أن أذكر العمادين الحارسين واقفين على مقربة من الشاطئ قبل دخولك إلى ناحية الكنيسة فالميدان . أليست هذه مجموعة فى فن العمارة والنحت لا تضاهيها حتى مجاميع بيزا وفلورنسا ! ووسط هذه المجموعة الفخمة وفى هذا الميدان الفسيح المرصوفة أرضه بالرخام وبين هذه القهاوى والحوانيت يخطر حمام سان مارك أسراباً وقد وقف عنده الناس يلقون إليه بالفتات طعاماً وهو إليهم مطمئن ولهم أليف .

أليس حمام سان مارك حراماً على كل يد قاسية ! . وقد كانت الحكومة تطعمه فى الماضى وأيام الأمراء وتنزل بمن يعتدى على أية حمامة منه أشد الجزاء . أما اليوم فقد حل شعب البندقية محل الحكومة ، وانعقدت بينه وبين حمام سان مارك الأزرق اللون فى شيء من الخضرة التى تكسوه جمالاً وبهجة ، ألفة وصداقة ، حتى صار الاعتداء على هذا الطير الرقيق الأليف اعتداء على شعب البندقية يدفعه بما يدفع به العدوان على فرد من أفراده أو جماعة من جماعته .

الوقت مساء والنهار ولّى وليس إلى اجتلاء جمال الكنيسة والعمد والأبراج سبيل . فلندر إذن فى الميدان دورة قبل أن نعود إلى الفندق . وحذار أن تعثر القدم بإحدى حمائم سان مارك أو أن تزعجها . وليس ذلك احتراماً لعواطف شعب البندقية وكفى . ولكن جانب الخير فى النفس الإنسانية يتغلب ما وجد مظاهر الخير فى الجماعة بادية . والقسوة والشر لا يملكان الفرد إلا إذا اختفى المثل الصالح من أمامه . والقاسى يهيجه الدم ما رأى الدم ، لكنه إن أحيط بعواطف الخير فقد حق على قسوته أن تنكمش حتى تتلاشى . فأما رجل

الخير فيقطب للقسوة جبينه ولا يلجأ إليها إلا كارهاً . وهو ما رأى الرفق والبر والرحمة مطمئن لها فرح بها مغتبط بالحياة وبالنهل من وردها أشد الاغتباط .

ودرنا فى ميدان سان مارك ثم عدنا إليه بعد طعام العشاء ، ثم عدنا إليه فى الغد وفى الأيام التالية إلى حين غادرنا البندقية ونحن نجتلى منه فى كل مرة جديداً . ذلك أن هذا الميدان قلب المدينة ، معرض عام لكل صناعتها وتجارتها وفنها ، وفيه معرض لكل ما تستطيع البندقية أن تجلوه للسائح من صناعة إيطاليا وتجارتها وفنها . وأشد ما يلفت النظر فى الجوانب الثلاثة التى تشرف عليها الكنيسة من صدر الميدان دنتلا البندقية ، والزجاج المصنوع فيها ، ونقش الجلود نقشاً فنياً . وما أحسب سيدة من السيدات ذهبت إلى البندقية إلا سحرها هذا الميدان عن أن تشهد شيئاً غيره ، لولا ما يكلفها ذلك من نفقة باهظة قد تجد فى سائر كنائس البندقية وجزائرها المختلفة ملجأ للفرار منها . والحق أنهم يعرضون الدنتلا فى صدور حوانيتهم عرضاً يهوى إليه لب الرجل ، وما بالك بلب المرأة ! ولست فى هذا الصنف خبيراً حتى تستوقفنى دقائقه وإن اضطررت للوقوف مع من يعرف هذه الدقائق ، وإن وجدت فى ابتسامات الباعة والبائعات وفيما يجرى من الحديث عن هذه الحلى التى تزيد الجميلة جمالاً فى كل أجزاء جسمها ما جعلنى أصغى لهذا الحديث بكل سمعى . فأما النقش على الجلد فكان يجذبنى مباشرة ومن غير واسطة . وللكتب وجلودها ، كعوباً وزوايا ، فضل فى ذلك غير قليل . فكثير مما وقع فى يدى منها أثناء مطالعاتى بالمكاتب المختلفة كان من مخلفات عشاق زخرف وقاء الكتب ، وكان ذلك آية من آيات فن النقش على الجلد . لكن أهل البندقية لا يعرضون كتباً فى صدور حوانيتهم ، يعرضون محافظ كبيرة ومحافظ للجيب وشباشب للسيدات كلها إبداع أى إبداع . ولعل السائح أقل ما يكون تفكيره فى كتاب مزخرف التجليد ليهديه لزوجه أو لصديقه أو لصاحبته . ولشبشب مزخرف الجلد تخطر به فاتنة على سجاد عجمى وثير أبعث للوحى وأنفذ إلهاماً من كثير من الكتب المتقنة التجليد .

وصناعة الزجاج مزدهرة فى البندقية أى ازدهار . ولقد أتيح لنا أن نرى معارض هذه الصناعة ، وأن نرى كيف يقومون بها . ويكفى أن تقف إلى جانب العاملة التى تصنع الفسيفساء لتعجب لأناتها وصبرها وهى تأخذ قطعاً صغيرة من الزجاج المختلف الألوان ، ثم ما تزال تضع كل لون فى المكان الواجب أن يوضع فيه حتى تكون الصورة التى تنتج من ذلك فى بهاء الصورة التى يراد رسمها . ألوف وألوف من هذه القطع يوضع بعضها إلى جانب بعض على لوح أبيض كما يضع النقاش ألوانه . لكن النقاش يستطيع أن يغير وأن يمحو وأن يصلح الخطأ .

فأما الخطأ فى نقش الفسيفساء فيجب أن يزال أولاً . وإزالته ليست أقل دقة من وضع الصواب من أول الأمر ، أو من وضعه مكان الخطأ . وإذا كانت صناعات الزجاج الأخرى لا تحتاج إلى ما تحتاج إليه الفسيفساء من عناء فهى ليست لذلك أقل دقة ولا بهجة .

وفى الحوانيت الفسيحة على جوانب الميدان الثلاثة صفت هذه الصناعات ، وصفت إلى جانبها غيرها مما ترى فى إيطاليا كالتماثيل والصور . فإذا دخلت ألفيت معارض واسعة تقع العين فيها على ما تحار فيه إن كلفتها الاختيار منه . ولعل هذه الحيرة هى التى تنقذ كثيرين من باهظ النفقة ، إذ يعدون أن يعودوا ، ثم تشغلهم مناظر البندقية حتى يغادروها .

وفى ضحى وصولنا إلى البندقية صحبنا دليل دخلنا وإياه إلى كنيسة سان مارك . وسان مارك هو القديس الحارس لمدينة البندقية ، نقل أهلها رفاته إليها من الإسكندرية فى سنة ٨٢٩ بعد الميلاد وبنوا الكنيسة فوق القبر الذى ثوى فيه سنة ٨٣٩ ثم أعيدت عمارتها بعد ما التهمتها النيران فى سنة ٩٧٦ وجددت على الطراز البيزنطى فى منتصف القرن الحادى عشر . وهى شرقية العمارة كـكثير مما فى البندقية ، ولها قباب خمس شبهها بقباب المساجد غير قليل . والقباب الأربع التى تحيط بالقبة الوسطى تقوم فوق بناء على صورة صليب متساوية أضلاعه . وأرض الكنيسة وسقفها وجدرانها بدائع فنية ليس لها فى غيرها مما رأيت من الكنائس نظير . نقشت الجدران والسقف بالصور المقدسة نقشاً بالفسيفساء والذهب والمرمر ، فكانت كل صورة ، بل كل قطعة ، آية فى جمال الفن ودليلا على الدقة والأناة . وإذا كان ما شهدنا من صناعة الفسيفساء وما تحتاج إليه من صبر ودقة قد التجأ إليه الذين زخرفوا سان مارك فما أصبرهم حباً فى الفن وابتغاء لوجه الله . وإن ما تشهد به سان مارك وما تشهد به كنائس البندقية الكثيرة ليقوم دليلا على أن الإيمان وحده هو القوة التى تسمو فوق الطبيعة وفوق العقل وفوق التصور والتى تتم المعجزات ، وعلى صدق كلمة الإنجيل أنْ لو ملأ الإيمان قلبك وقلت لهذا الجبل انتقل من مكانك ينتقل . فهو الإيمان بالله وبأوليائه الذى دفع أولئك الفنانين ليتموا فى سان مارك وغير سان مارك بدائع فى الفن معجزة . وهو الإيمان بالعلم وسلطانه الذى أخضع للإنسان قوى الطبيعة التى لم تكن تخضع من قبل للإنسان ولا لغير الإنسان .

وعلى مثال المساجد وغير المساجد من آثار العمارة الشرقية تحيط بالكنيسة من خارجها وتنتشر فى داخلها عمد من الرخام الدقيق الصنع يبلغ عددها خمسمائة . ويعتلى باب الكنيسة المزخرف أجمل الزخرف بالفسيفساء المذهب تماثيل أربعة جياد من البرنز المذهب ، كذلك

ذكر الدليل أن أحد دوقات البندقية جاء بها من القسطنطينية فى أواخر القرن الثالث عشر فزين بها هذا المكان المقدس ، كما زعم أن نابليون أخذها أثناء غزوه إيطاليا ، ثم أعيدت من بعد ذلك إلى حيث هي اليوم مثال حسن ودقة فى الصناعة .

إلى جانب كنيسة سان مارك يمتد قصر دوقات البندقية مطلا من جانب على مدخل ميدان سان مارك ، ومن الجانب الآخر على مياه الأدرياتيك . ودوقات البندقية هم حكامها أيام كانت جمهورية مستقلة تصل الشرق بالغرب وتتأثر دائماً بالحضارة الغالبة . ولقد ترك الشرق فيها من الآثار الباقية أكثر مما ترك الغرب . فكنيسة سان مارك شرقية العمارة والزخرف . وأكثر كنائس البندقية وقصورها شرقية مثلها . ومن بين هذه القصور قصر الدوقات قام به أمراء البندقية عندما كانت البندقية جمهورية مستقلة ، ثم أصبح اليوم متحفاً تعرض فيه النقوش والصور والتماثيل كما تعرض فى غيره من قصور البندقية القديمة ، وكما تعرض فى كثير من القصور فى فلورنسا وفى روما ، فى هذه القصور التى كانت فى الماضى متاعاً لأمير أو لحظية ملك ، ثم جعلتها الحرية متاعاً مشاعاً للشعب كله يجتلى فيه من آثار الفن والعلم ما كان حراماً على الشعب أيام الأثرة والاستبداد ، أيام كان الملوك ورجال الدين قد عقدوا الخناصر لإذلال الشعب واستغلاله . ما أفخم قصر الدوقات هذا ! يتخطى الإنسان بابه الخارجى إلى فناء فسيح يصعد بعده على سلم من الرخام إلى ديوان يطل على الفناء ، ثم يدخل إلى غرف القصر فيرتقى إلى الطابق الأول سلماً عريض الدرجات ما يكاد ينتهى منه حتى تقابله غرف القصر الفسيحة تغطى جدرانها أبدع النقوش والصور . وإن أنس لا أنس من غرف القصر غرفة مجلس أمير البندقية ، مستطيلة تزيد على خمسة عشر متراً فى العرض وأربعين فى الطول وقد صفت فيها المناضد كما تصف فى مجالس الشورى . وفى صدر المكان منضدة رفيعة كانت مجلس زعيم الأمراء . دع عنك التاريخ وما كان الأمراء يصنعون ، وقف محدقاً إلى هذا الجلال والجمال فى الفن والعمارة حتى يبلغ منك الإعجاب حد الذهول . ويقول صديق كان معنا وهو يحدق معجباً إلى الصور لتستوقف نظره صورة نقشت فى السقف تمثل البندقية جالسة على عرش العالم لتشيع فيه العدل والسلام : « أليس هذا بعض فضل الاستبداد ، كما أن الكرنك والأهرام وأبا الهول فى مصر بعض فضله ؟ ! وإذا استمتعت الشعوب بما تستمتع به اليوم من بدائع آثار الفن فهل ذلك إلا أن الاستبداد كان خيراً فى عصر من العصور ؟ ! » ثم يقف هنيهة يراجع فيها نفسه ويذكر أن روح الجماعة الحرة قد شادت مثل ما شاد المستبدون ، وأن آثار فن اليوم ليست أقل

روعة وجلالا من آثار فن الأقدمين .

وفى جانب القصر المطل على مياه الأدرياتيك والذى يجتلى الجزر القريبة ، بهو تبلغ مساحته ضعف مساحة غرفة المجلس ، لعله كان ملهى لأمراء البندقية وملعباً للكواعب الحسان من بنات المدينة بالجزيرة ممن ترك جمالهن الرفيق المكسال فى نفس دافنشى وتسيانو وروسو وغيرهم من كبار الكتاب والفنانين أثراً تجتليه اليوم فى مخالفاتهم الخالدة على الزمان .

وهبطنا نريد الخروج ، فاستوقفنا أحد الحراس ليرينا جانباً مظلماً من جوانب القصر المنير . ذلك جانب السجون التى كان يسجن فيها المتهمون السياسيون : غرف ضيقة لا ترى شمساً ولا يتجدد فيها هواء ولا يدخل أكثرها النور : وتدل وحشتها على سواد نفوس المستبدين الطغاة . وفى إحداها نافذة ضيقة تطل على جسر أطلق عليه أهل البندقية اسم جسر الدموع ، ويرى السجين من خلالها نور الشمس وهواء الحياة وموج البحر . فى هذه الغرفة كان يقضى المتهم السياسى الليلة السابقة على قتله فتذرف عينه الدمع . وما أحسب الظلمة كانوا يريدون بنقـله ليرى بعض آثار الحياة أن يزودوه فى لحظاته الأخيرة بشىء من المتاع ، وإنما كانوا يريدون به أن تزيد حسرته فيزداد بذلك عذاباً . وقلب المستبد يستمرئ عذاب المظلوم ، كما يستمرئ القلب الحر البر والرحمة .

وعدنا آخر النهار إلى ميدان سان مارك من جديد . ما أشد سحر هذا الميدان ! إن الزمن الذى يكفيك لترى البندقية كلها خلا هذا الميدان لأقل من الزمن الذى تحتاج إليه كى تحيط بكل ما احتواه . أليس هو قلب البندقية ومجتمع أهلها والنازلين فيها ؟ أو ليست فيه أبدع آثارها ؟ عدنا إليه آخر النهار إذاً معتزمين أن نصعد إلى أعلى برج البندقية . وبرج البندقية ليس مستديراً كالبرج المائل فى بيزا ، بل هو مربع كبرج فلورنسا . وهذا البرج أنشئ مكان برج قديم اختلّت عمارته فى سنة ١٩١٢ . لذلك ترى فيه من آثار حضارة هذا العصر مصعداً يرتفع بك إلى أعلاه دون أن تتجشم ارتقاء مئات درجاته مما يصد عن غيره كثيرين ممن تقدمت بهم السن أو غدر بهم المرض . وتبدت شواطىء إيطاليا أمام نواظرنا ونحن فوق البرج خاشعة متواضعة . وتبدت كذلك أعالى البندقية بعد أن كانت تتيه كبراً بارتفاعها ، فهذه قباب سان مارك تلمع أشعة الشمس المتدرجة إلى المغيب فوقها فتذر رخامها متورداً برهة ، ثم ما تلبث القصور المحيطة بالميدان أن تحول دونها ، وهذا برج الساعة وقف فوقه تمثالان يدقان على جرس هائل عدد ما ينقضى من حياة الوجود من ساعات . وهذه قباب الكنائس الكثيرة المنثورة فى البندقية مدينة

الكنائس . وهذه قصور الأمراء والفنادق المصطفة على رصيف سكيفولا . وثمة الحديقة العامة فى آخر المدينة . وثمة ربوع أهل البندقية ومنازلهم وراء الفنادق متواضعة منحدرة فى الماء .

بدأ الهواء يهبُّ بارداً حين بدأت الشمس تنحدر إلى المغيب . وبلغ من برودة الجو ، وما نزال فى منتصف أكتوبر ، أن ذكر الناس زمهرير الشتاء . وظن عامل المصعد أن لابدّ أن الناس هابطون اتقاء الهواء اللاذع ، فصعد إلينا وفتح باب مصعده على مصراعيه وقصد جماعة أصابتهم الرعشة يريدون الهبوط ، لكنهم ما كادوا يقتربون من المصعد حتى عاودهم التردد ، فعادوا يشهدون منظراً جلَّ عن كل وصف : منظر الشمس المنحدرة نشرت حولها أبهى الصور والألوان . وعلى ركن ضيق من المكان يحميه الزجاج من لدغ الزمهرير اجتمع العشرات من الحاضرين يجاهد كل يفسح لصاحبه كى يجتلى مشهداً قلّ أن يتاح له اجتلاء مثله روعة وجلالا وجمالا وسحراً . ونسينا البندقية والبرج . وسان مارك ، ونسينا كل شىء إلا هذه الشمس التى صبغت الوجود نوراً وناراً ودماً ، وصرنا لا نسمع إلا آهات الإعجاب تنطلق من صدور الحضور جميعاً بالرغم منهم . وظل عامل المصعد زمنا ينتظر هؤلاء المرتعدين بقارس البرد المأخوذين بروعة المنظر ، حتى أتاحت الرعشة له بعض أفراد هبطوا معه ، ثم عاد إلينا وخرج من مكانه يشاركنا فى عبادة الجمال . فلما آن للبحر أن يبتلع فى جوفه ملك النهار هبطنا إلى البندقية والنفوس ذاهلة والوجوه واجمة والقلوب خفاقة بروعة المشهد العظيم .

أرأيت كيف خلق فن الإنسان وصنعته من هذا المكان الضيق ، سان مارك ، عالماً فسيحاً يستوقفك أياماً ، وهو جدير بأن يستوقفك أسابيع بل شهوراً ؟ ! على أن بالبندقية غير ميدان سان مارك وقصور الأمراء كثيراً من الكنائس والمتاحف وما شادت العمارة مما يجذب السائح إليه .

ولقد زرت من ذلك ما اتسع وقتى لزيارته . والوقت فى البندقية ليس يتسع لكل ما يتسع له فى غيرها . وكيف السبيل إلى مثل سرعة الأوتموبيل فى مثل هذه الطرق المائية الكثيرة التعاريج ! وليس ذلك وحده ما يضيق من الوقت . بل إنك لتشعر أحياناً إذ تجوب بعض أحياء البندقية بانقباض يزهدك فى قضاء الوقت بها . فأكثر طرقها ضيقة غاية الضيق ، حتى لتسائل نفسك كيف يعيش أهل هذه المنازل المحرومة ضوء الشمس الغائصة من أجيال وأجيال فى الماء الراكد النتن الرائحة وأنت مضطر لكى تصل إلى بعض المتاحف والأماكن

الفخمة إلى اجتياز هذه الطرق . وهى لذلك تصدك عن المضى فى كثير من زيارتك ، وتضطرك أن تذهب إلى بعض الجزر كليدو أو جويدكا تطلب فيها هواء أصح من هواء البندقية .

على أن الأثر الذى يبقى فى نفسك من المدينة الجزيرة هو ميدان سان مارك ؛ هو هذه البدعة الفنية التى جمعت الكنيسة والقصور والميدان والحمائم والدنتلا والزجاج والجلد المنقوش والتماثيل ، والتى جعلت من البندقية متحفاً يمتاز على المتاحف كلها برشاقته وظرفه ، كما تمتاز هى على المدائن كلها بطبيعة موقعها وعجيب تكوينها مما يجعلها ساحرة جذابة تهوى إليها الأفئدة . وتود أن تستمتع بها الأعين .

ولعل للبندقية سحراً آخر لمحته عشية سفرنا منها ، إذ كنت بالفندق على مقربة من سيدة أمريكية تتحدث إلى بعض خدمه بلهجة فيها من رفع الكلفة غير قليل . وبصوت كأنه متعب من الحياة ملول لما فيها . بعد أن فاض بصاحبته المتاع بها حتى سئمت كل متاع ، وحتى تضعضعت أعصابها عن أن تطمئن لما اعتاده الناس لوناً للحياة ، فهى قد زارت البندقية مرات كما زارت غيرها من البلاد والممالك . لكن بها إلى ليل البندقية هوى لا تجد فى نفسها مثله لليل مدينة غيرها . ليل البندقية الذى تسبح فيه الجندولات والزوارق بأنوارها الضئيلة المستحيية فوق لجة لا هى بالعباب يضطرب موجه ولا بالراكد والتى تميل لذلك بمن فيها ميلاً رفيقاً يدع الخيال يذهب فى مسارحه ناسيا ما استطاع الضجر والألم ، وتهزهم بحنان كأنها مهد الطفل ترفق فى هزه يد أم رءوم . فتنيم فى نفوسهم أنات مكظومة كانت تنفجر فى الضوء الصارخ وفى الرجة العنيفة : إلى هذا الليل تهوى السيدة الأمريكية وقد يهوى كثير غيرها . وهذا الليل الساحر لا يستمتع به الذين يقضون ساعات نهارهم فى التنقل بين المتاحف والكنائس وفى مشاهدة ما خلف ماضى البندقية العظيم من تراث خالد ، والذين يقتضيهم الليل نوماً يستعيدون به نشاطهم لجلاد الأيام التى تليه .

لم أعرف إذن سحر ليل البندقية ، ولم أعرف كذلك كثيراً مما فيها . أنى لطاقة الإنسان أن يجتلى فى أيام روح مدينة تضم ألوف أمثاله ، وتضم إلى جانب هذه الألوف حياة ألوف من عصور الماضى ترك كل فى روح المدينة من أثره ما تحتاج معرفته إلى انقطاع ودراسة . فليس ميدان سان مارك وحده ، وليس ليل البندقية الذى يهز فى رفق ملل من أضنت الحياة أعصابهم ، وليست الكنائس والجزر وما بينها من طرق مائية ، هى التى تجذب الناس إلى البندقية أو إلى أية مدينة سواها ، وإنما يجذبهم إليها روح المدينة القديم الباقى على العصور ، والذى يجعلنا نشهد فى لحظة ما أتمه أمثالنا فى أجيال وقرون .

بين صيفين

غادرنا البندقية إلى تريستا فى الرابع عشر من أكتوبر ، وأبحرت الباخرة حلوان بنا غداة ذلك اليوم ، ورست بنا فى الإسكندرية بعد مسيرة ثلاثة أيام كان البحر خلالها مصقول الصفحة ، والهواء رخاء ، وكل شيء على ما نود ونهوى . وانخرطنا من جديد فى حياتنا العادية بنفوس هادئة وقلوب مطمئنة ، يعاودها الأسى بين حين وحين . فنرى فى مثل هاته الرحلة لوناً من لذة الحياة إلا يكن فيه ما يجنب النفس الألم ففيه ما يحبب إلى النفس الحياة . وتركت رحلتنا فى نفوسنا أثراً جعلنا نردد دائماً أنا متوجهون إلى أوربا كل صيف . وتقضت الشهور ، وأقبل الربيع يحمل فى أردانه حرارة الصيف ، فبدأنا نفكر فى رحلته . وتشاورنا فى الطريق التى نسلك ، واستنصحنا بعض أصدقائنا ، ثم استقر بنا الرأى عند الذهاب إلى الآستانة ورومانيا دون أن نضع خطتنا لما بعدها . ذلك لأنى أعتقد أن خير السياحات ما يترك فيه الإنسان الخطة للظروف ، فلما كنا بعاصمة الإمبراطورية العثمانية التى لم تبقَّ عاصمة كما لم يبق لآل عثمان ملك ، ولا للأتراك إمبراطورية ، فكرنا فيما عسانا نفعل بعد وصولنا قسطنزة . وتشاورنا وأصدقاؤنا الذين لقينا بالآستانة ، فرسموا لنا طريقنا إلى بخارست فبودابست ففينا . قلت : إذن فليكن هذا طريقنا إلى باريس . ولو أن الوقت انفسح أمامى لكان لبرلين نصيب من رحلتى . فلما كنا بفينا ذهبنا بعدها إلى براج فباريس ، واستغرقت رحلتنا هذه من ٣٠ أغسطس إلى ٣ نوفمبر سنة ١٩٢٧ كانت حالتنا النفسية أثناءها فى طمأنينة سمحت لى بأن أسجل كثيراً من الملاحظات فى شؤون شتى وقفت عليها ، وأشهد أن سفراءنا وقناصلنا ورجال السلكين السياسى والقنصلى كانوا جميعاً ذوى عون صادق فيما وقفت عليه من ملاحظات سواء بما أبدوه لى من معلومات كنت أسأل عنها ، أو بما مكنوا لى من الاتصال بأهل البلاد التى مررت بها ممن لم أكن لأتصل بهم لولا حسن وساطة رجالنا المحترمين الذين شعرت لهم فى نفسى بتقدير واعتراف بالجميل لن تنسيه الأيام .

وهذه الرحلة وما وقفت عليه خلالها من ملاحظات هى موضوع الكتاب الثانى .